كلمة العدد

الألفية الثالثة وآفاق المستقبل

بقلم سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

مع مقدم الألفية الثالثة التي انسلخ منها الآن خمس سنوات أدركت البحرين أنها على مشارف عصر جديد له معطياته وله آفاقه وله ضروراته . .

ومنذ أسابيع شهدت البحرين برعاية عاهلها جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة حشداً عالمياً غير مسبوق تجمع كله في إطار عنوان كبير هو آفاق المستقبل . ذلك أن القيادة الواعية تعلم جيداً أن سباق العصر غير أي سباق وغير أي عصر . . فالحركة أسرع والآفاق أرحب وأعرض والمعطيات كثيرة ومعقدة ومتشابكة . .

من هنا كان ذلك الحشد الذي حرص على أن يجمع ذوي الفكر والرأي . وحرص أكثر من ذلك على حشد الرؤى المتباينة التي تتناول بعمق ووعي أبعاد العصر الجديد الذي يطل على الإنسانية والذي يأتي معه بواقع مختلف . مختلف كثيراً عما عرفته العصور السابقة . . والبحرين بذلك تقف على أعتاب عهد جديد . وهي ليست وقفة المتفرج عما يجري أمامها . وإنما دور الفاعل والمساهم بل والرائد الذي ينطلق بفكر هادئ ووعي عميق ليأخذ مكانه اللائق به وسط المنظومة الدولية . .

إن المؤتمر الذي شهدته هذه الأرض الطيبة والذي كان حجم الإسهام به مظهراً يعكس أهمية هذه الأرض وأبعاد الثقة في قيادتها . .

هذا المؤتمر كان في شكله إطلالة على الغد وفي جوهره إحساس واع بأبعاد الغد الذي يوشك أن يظل الأرض بمعطيات بعضها معلوم وأكثرها مجهول . .

إن العالم يبدأ أو بدأ مع الألفية الثالثة حقبة جديدة قد تكون نعمة على العالم كله . وقد تأتي معها بمخاوف تجتاح البشرية كلها . .

والفكر الرشيد هو الذي يبحث أين نقف من معطيات العصر الجديد وكيف نواجه معطياته وتخوفاته . .

إن أبرز ما يطل به علينا العصر هو مشكلة الأمن . فالعالم اليوم وإزاء الجريمة المنظمة والإرهاب المنظم أصبح في حاجة ماسة إلى التماسك والتلاحم لمواجهة هذه الظاهرة التي لا تهدد مساحة من أرض أو دولة أو أمة من الأمم . وإنما تهدد مصير البشرية كلها وتدخل بها دوامة هائلة من العنف تطوي وتدمر كل ما أحرزه الإنسان من تقدم وما أنشأه من حضارات . .

إن الجريمة المنظمة والإرهاب ظاهرة مرضية تجتاح العالم اليوم وقد أصبح من الضروري اتخاذ موقف عالمي موحد لمواجهتها والتصدي لها بل والقضاء عليها . . فالقضية لم تعد قضية إقليمية . . وإنما هي بكل أبعادها قضية إنسانية . . قضية نكون أو لا نكون . . هذا ما أدركه المؤتمر الكبير في جانب من جوانبه . . وهو بهذا يجعل الدول تدرك مسئوليتها وتدرك في وقت مناسب أن الأمر لم يعد شيئاً عابراً . . وإنما هو خطر تجذر في الكرة الأرضية وأصبح يهدد هذه الكرة بأشياء كثيرة .

إن مؤتمر البحرين وقفة مع أحد مخاطر الألفية الجديدة وهي وقفة مباركة بكل المقاييس . . وقفة تحسب للبحرين التي فكرت وخططت ونفذت وسبقت . . ولكنها يجب ألا تكون الوقفة الوحيدة أو الأخيرة . . فمازال القرن في بداياته ومازالت معطيات العصر شيئاً مجهولاً لا يدري أحد ماذا سيأتي به أو معه ولكن اليقظة واجبة والحركة لازمة .

إن البحرين باستقبالها هذا المؤتمر إنما ترسخ توجهاً جديداً يعكس حكمة القيادة الرشيدة التي تقود سفينة البلاد بحكمة وجدارة . . وأول إدراكها هو معرفتها العميقة بأبعاد العصر الجديد وبموقف الدول النامية كلها من هذا العصر . . فلم تعد البحرين في ظل هذه القيادة الفتية جزيرة على هامش العالم وإنما هي حلقة قوية في سلسلة المنظومة الدولية تأخذ مكاناً مرموقاً وسط الصف المتلاحم والمتقدم دوماً نحو تحقيق الهدف المنشود لأبناء هذا الوطن وللبشرية جمعاء .

عبد الله بن خالد آل خليفة

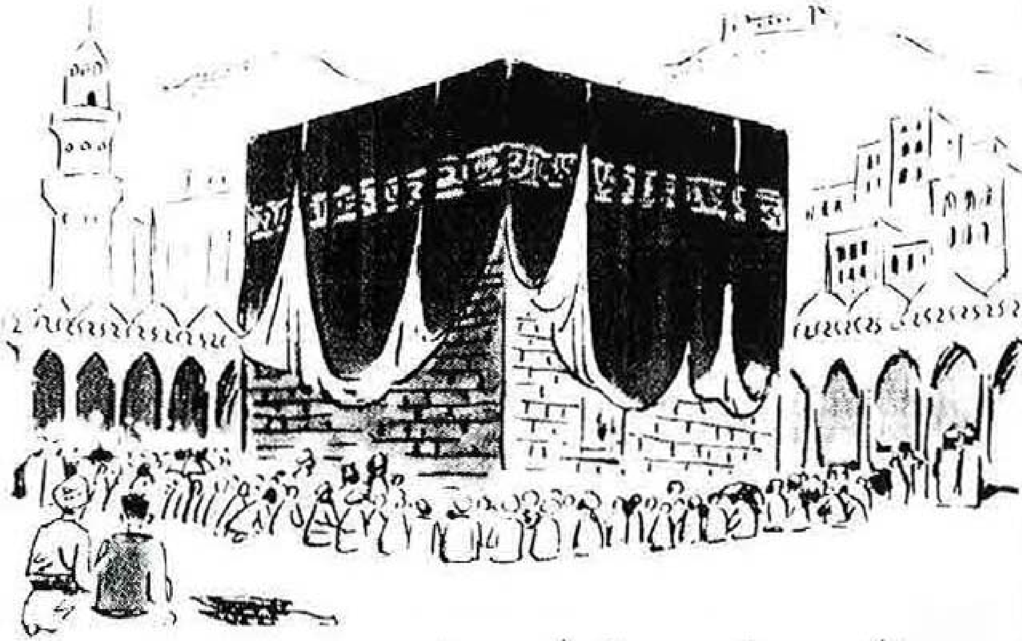
مكة المكرمة

عاصمة الثقافة الإسلامية

بقلم : الدكتور علي أباحسين

الحالة الثقافية في مكة

اقرأ : آية العلم نزلت في مكــة المشرفة مهبـط الوحي الأول . واقرأ بداية الوحي في البلد الأمين . وآية العلم تنزل على معلم المؤمنين وسيد المرسلين محمد عليه الصلاة والتسليم . ليأمر الناس بالعلم ويخرجهم من الجهل والجاهلية الأولى إلى نور المعرفة والهداية والرشاد . وفي غار حراء الذي تجلى على جبل النور . ذلك الوحي مدرسة عِلم علّم فيها الله عز وجل الإنسان مالم يعلم فتعلم النبي ﷺ من الله الكلم .



ـة أيام العباسيين

ثم نزل في دار الأرقم ليعلم قومه الأقربين - فآمن به من كان ذا بصيرة وعقل راجح . ثم عرض العلم على الأبعدين . فكان منهم من آمن . وأصبح كل تلميذ من تلامذته الأوائل مشعل نور ينير الدرب للآخرين . ومن ذلك القبس الوهاج يتعلمون ما ينفعهم في حياتهم الدنيا والآخرة وينشرون العلم . وهذا هو أساس الحضارة العربية الإسلامية .

الوثيقة ١٣.

ففي تلك الدار وعلى جانب من الصفا[1] وتشرف على المسجد الحرام إنها دار الصحابي الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي . هناك علم فيهـا رسول الهداية أربعين صحابيا . حتى إذا مابلغ عددهم الأربعين أصبح التعليم جهرا وعاما . ولإسلام عمر بن الخطاب والحمزة بن عبدالمطلب ﷺ أثر في قوة الدعوة الإسلامية إذ بإسلامهما : انتقلت الدعوة من سرية إلى علنية . وهكذا عرفت (دار الأرقم) في التاريخ الإسلامي فيما بعد (بدار الخيزران). والخيزران زوجة المهدي وجاريته وهي أم الخليفتين العباسيين موسى الهادي وهرون الرشيد التي أعادت بناء دار الأرقم فجعلتها مسجدا .

أما دعوة العلم الإسلامية فقد انتقلت من المخبأ في دار الأرقم إلى المسجد الحرام وفي كل مكان . وأصبح المسجد الحرام الشريف المدرسة الكبرى في تاريخ الإسلام يستقبل الوافدين إليه لتلقي تعاليم الدين ومقوماته من الرسول الهادي الأمين ﷺ . ومن الصحابة تلامذة الرسول الأوائل ينابيع العلم ومصابيح الظلام يناقش فيه الآيات ويفسرها ويعلم النبي ﷺ الصحابة تفسيرها وأسباب نزول الآيات وناسخها ومنسوخها وغيرها مما سيكون ثروة علمية تسمى بعلوم القران . وكان وجوده بينهم مصدر علم للسنة النبوية . ففي قوله حديث وفي فعله وتقريره سنة متبعة يكون الأصل الثاني بعد القرآن الكريم من أصول الفقه .

وانتقل رسول العلم إلى الرفيق الأعلى مخلفا العلم الإسلامي وتلامذته الأولين . وأصبح المسجد الحرام بمكـــة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة المدارس الأولى والكبرى في تاريخ الفكر الإسلامي .

وجلس (ابن عباس) في المسجد المكي الشريف الذي تطور إلى مدرسة كبرى ليساهم في بناء صرح الثقافة العربية الإسلامية العتيد .

مدرسة ابن عباس :

ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ جد الخلفاء العباسيين . هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي . وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة زوج الرسول ﷺ[2] . ولد عبد الله بن عباس قبل الهجرة

بثلاث سنين وشب في حجر رسول الله ﷺ وكان كثير الاتصال به . وقد اتفقت كلمة المسلمين على توثيقه وصدق حديثه . وأنه من علماء الصحابة الذين يرجع إليهم في أمور الدين . ووصف بالبحر لسعته وغزارته ورجاحة العقل وسعة الصدر وشدة الإيمان(٣) كان يشهد كتب الدعوة إلى الإسلام(٤) تلك التي يرسلها النبي ﷺ لرؤساء القبائل وملوك الأرض . ودعا رسول الله ﷺ لعبدالله بن عباس بقوله : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ودعا له بالحكمة والعلم وهو صغير حينما كان يجلس في حجر رسول الله ﷺ بقوله : (اللهم بارك فيه وانشر منه)(٥).

ومن هنا كان إسلام عبد الله بن عباس وهو طفل تربى وترعرع في حجر رسول الله ﷺ وهاجر إلى مدينة المصطفى مع المهاجرين الأولين من مكـــة المكرمة . ولم نعثر على سيرته في المدينة المنورة وهو في طفولته . وكان عمره حين وفاة الرسول ﷺ سنة ١١ هـ في السنة الثالثه عشرة وقيل له من العمر خمسة عشر عاما(٦) . نبغ ابن عباس في الحديث . وبعد أن قبض رسول الله ﷺ كان يسأل الصحابه من الأنصار عن آثار النبي ﷺ وهم يعترفون بعلمه حتى قال قائل منهم : أنا أحق أن آتيك فأسالك عن الحديث وقال آخر : ترى الناس يفتقرون إليك ومنهم من الصحابة من فيهم(٧) . ويعتبر ابن عباس من الصحابة رواة الحديث الأوائل . فقد روي عن رسول الله ﷺ أكثر من خمسمائة وألف حديث(٨) . وكان بعض الصحابة إذا أشكل عليهم فهم بعض معاني آيات من القران المجيد سألوا الرسول ﷺ وهنـــا ظهر (التفسير) لفهم المعاني . ولاشك أن الصحابة بعد رسول الله هم اكثر فهماً لتفسير القرآن لأنه أنزل بلغتهم وعاشوا مع الرسول ﷺ وعاصروا الظروف التي نزلت فيها الآيات وإن كان بعضهم يختلف عن الآخر في الفهم ومدى اتصالهم برسول الله ﷺ .

ولما اتسعت دولة المسلمين ودخل الناس في دين الله أفواجا واحتاجوا لمن يفسر لهم معاني القرآن الكريم كان **ابن عباس ترجمان القرآن** لدقة فهمه ومصاحبته للرسول ﷺ ومعرفته باللغة وعلومها . وكان بعض الصحابة يرسلون لابن عباس بعض من يسألهم لكي يجدوا الجواب الشافي عنده . فقد أرسل عبد الله بن عمر بن الخطاب رجلا يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ؟ إذ قال للرجل اذهب إلى الشيخ _ يعني به ابن عباس– وطلب منه أن يعلمه بجوابه . فقال ابن عباس : (كانت السموات رتقا –

لاتمطر – وكانت الأرض رتقا لا تنبت ففتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات وعاد السائل ليخبر ابن عمر . فقال ابن عمر : الآن علمت انه أوتي علما(٩) .

مكانة ابن عباس العلمية :–

يتمتع عبد الله بن عباس جد العباسيين وابن جدهم بمكانة علمية عالية عند المكيين خاصة والمسلمين بصورة عامة . وكان مجلسه في زاوية زمزم التي تلي الصفا والوادي بمكة المكرمة على يسار من دخل زمزم كما قال الأزرقي بسند متصل(١٠) . ويسمى هذا المكان بموضع مجلس ابن عباس . وكان نصيب البيت العباسي من الحركة العلمية وخاصة علوم الدين واللغه نصيبا موفورا . فقد كان عبد الله بن عباس (المعلم) الأول للقرآن والحديث بعد رسول الله ﷺ بمكـــة والمدينة فكان يجلس يسأله الناس وهو يجيبهم(١١) . **فيجلس (ابن عباس) يوما للتفسير ويوما للحديث ويوما للفقه,يوما للشعر ويوما لأيام العرب**(١٢) . لقد علم العلم من صغره وشبابه وما فتح عينيه إلا على نور الإسلام وترعرع تحت رايته حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يستشيره . فاذا غمضت عليه قضية دعا ابن عباس وقال له أنت لها ولا مثالها . ثم يأخذ بقوله ولا يدعو لذلك أحدا سواه(١٣) .

وقد اتسع باب (الاجتهاد) في عهد عمر بن الخطاب نظراً لتوسع الفتوح الإسلامية وتزايد عدد المسلمين وتنوع أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم وتزايد الأحداث التي تتطلب الأحكام التي تناسبها . وقد جاء القرآن المجيد بعموميات الأحكام وترك للسنة بجانبه التفصيل ثم الإجماع فالقياس والاجتهاد . وجاهد ابن عباس بقلمه وعلمه الغزير . كما نجده مجاهدا في سبيل الإسلام بسيفه بطبرستان أيام خلافة عثمان بن عفان ﷺ بصحبة سعد بن أبي وقاص ﷺ وعدد من الصحابة الأبرار . ومجاهدا للروم في حملة العبادلة في شمال أفريقيا . واشترك مع الإمام علي كرم الله وجهه في وقعة الجمل ٣٦هـ وفي صفين في ٣٧هـ ومعه أيضا في النهروان ضد الخارجين على إمام المسلمين وخليفتهم . وكان يقدم المشورة للصحابه فهو الذي أشار على أبي موسى الأشعري حين التحكيم بالتيقظ(١٤) . وكان الإمام علي ﷺ يرغب أن يكون ابن عباس ممثلا له في التحكيم . وسار ابن عباس مع الجيش المجاهد للروم والذي حاصر القسطنطينيه في عهد معاوية بن

أبي سفيان ٤٨هـ. ولم يبايع ابن عباس يزيد بن معاوية بادىء الأمر وربما بايعه لينصرف للنواحي العلمية بدلا من التيارات السياسية وقتئذ . وقد أسدى النصيحة للإمام الحسين بن علي ﷺ بأن يعدل عن السفر إلى الكوفة[١٥].

واتخذ ابن عباس المسجد الحرام مدرسة يجلس فيها وإن كان هذا المسجد العتيق قبل ذلك مدرسة يجلس فيها طلاب العلم ليسألوا الرسول ﷺ وصحابته في مجالسهم التي تبحث فيها علوم القرآن وآثار الرسول وصحابته الذين صحبوه في حله وترحاله وذلك طيلة عهد الراشدين . ولما قامت دولة بني أمية في الشام زادت أهمية المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف من الناحية العلمية إذ تحول الثقل السياسي نحو الشام والعراق ومصر واشتدت الأزمات السياسية والفتن هناك فلم يجد طائفة من العلماء بداً من الهجرة إلى البلد الأمين ودار هجرة المصطفى ﷺ فان الفتنة تجئ فتنسف العباد نسفا وينجو العالم منها بعلمه[١٦].

فلا يسود العلم إلا حيث الطمأنينة والاستقرار فلا ابتكار في ديار تسودها الحروب وتعم فيها الفتن والثورات . وتخصصت مكة الإسلام ومدينة الرسول ﷺ بالناحية العلمية وكثر الوافدون إليهما من علماء وطلاب علم مع مابقي فيهما من صحابة ومنهم عبد الله بن عباس ﷺ . وقد اتخذ من جانب الحرم المكي مدرسة يلقي فيها دروسه فكانت المدرسة الاساسية في التعليم أيام الأمويين في مكة هي مدرسة ابن عباس[١٧].

كانت دروس ابن عباس في مدرسة الحرم المكي الشريف تشبه الاختصاص فيوم للتفسير فلا يعلم في ذلك اليوم إلا تفسير القرآن المجيد . ويوم آخر للحديث وهو يوم لايقول فيه إلا الحديث . ويوم لأيام العرب وآخر في الشعر وتلك لعمري الطريقة الجامعية والتخصص الذي مابعده تخصص . فمدرسة ابن عباس بمكة جامعة للعلوم وجامعة تخصصت في المعارف الإسلامية والعربية . لقد اتخذ ابن عباس مدرسة في الحرم المكي الشريف في موضع والده العباس قرب سقاية العباس في الزاوية اليسرى من زمزم مما يلي الصفا[١٨] . وقد تحلقت حوله حلقات الطلاب والعلماء ينهلون من معينه الذي لاينضب فاتسعت حلقته حتى بلغت معارفه كل مكان من ديار الإسلام وأخذ تلامذته ينشرون معارفه في المعمور من الأرض . وساعد الحج علي ذلك إذ يفد الحجاج إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فيجدون عالماً وصحابياً جليلاً يجيب على كل سؤال في شتى

فروع المعرفة الدينية ولم يعرض عليه سؤال إلا وكان عنده الجواب في التفسير والحديث وعلوم القرآن واللغة والشعر وأيام العرب . وقد حفظ التاريخ أسماء بعض تلامذته الثقاة في الرواية والحفاظ في الحديث ومنهم : مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس، وابن كيسان، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار، وأبو الزبير محمد بن مسلم، وعمرو بن دينار المتوفي ١٢٦هـ وكان ثقة كثير الحديث وكان يفتي بمكة وخلفه بعد وفاته في افتاء الناس عبد الله بن نجيح . كما أن عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج كان علما من أعلام مدرسة مكة وأنه من أول من ألف في الحديث أن لم يكن أولهم[١٩] .

وذكر أن العلماء الذي وصلوا إلى مكة أخذوا فكرة الحديث منها أثناء حجهم ونشروها في بلادهم . كما جمع ابن جريج أحاديث عصره وعني المكيون برواية ماورد من التفسير عن ابن عباس المكي كمجاهد وعكرمة . وجاءت طبقة أخرى عاشت في العصر العباسي وأشهرهم عبدالملك بن عبد العزيز بن جريج وكان كثير الحديث جدا تلقى عنه الأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينه وكثيرون وتوفي سنة ١٥٠هـ . وعكرمة من تلامذة ابن عباس ومن مواليه الذين لازموه في حلقاته . واستمرت مدرسة ابن عباس بمكة حتى بعد وفاته إذ جلس تلامذته ثم تلامذتهم بمجلسه . وكان منهم فيما بعد سفيان بن عيينه المتوفى ١٩٨هـ بمكة وقد أخذ عنه الشافعي وابن حنبل وابن اسحاق . ومن تلامذة ابن عباس الفضيل بن عياض ومسلم بن خالد وكان الشافعي يقول لولا مالك وابن عيينه لذهب علم الحجاز[٢٠] .

لقد اتبع ابن عباس منهجا علميا في التخصص وفي التأليف وله كتاب في التفسير يسمى تفسير ابن عباس وربما لم يصلنا هنا الكتاب وإن نسب إليه ذلك من قبل مخطوط في دار الكتب الظاهرية مزين أوله بالذهب والألوان وإطار ذهبي مزخرف كما دلنا عليه فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية رقم ١٨٨ وذكر حاجي خليفة تفسير ابن عباس المختصر المزوج[٢١] . وقد جمعت فتاواه والذي قام بجمعها أبوبكر محمد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين في عشرين مجلدا[٢٢] . وفي الحديث له كتاب هو (المسند في الحديث)[٢٣] .

هذه الكتب أما منسوبة له أو كتبت من قبل تلامذته بعد سماعهم له حينما يفسر بعض الآيات أو يفتي أو يروي الحديث . أما كونها قد كتبت بيده فلم يرد من قبل

المؤرخين ذلك وهم يتحرجون من كونها قد خطت بيد ابن عباس ﷺ . وربما أنه لم يكتب لأن عصره مشحون بالتيارات السياسية المتضاربة والفتن والاضطرابات المذهبية والأحزاب السياسية ويحتمل أنه كتب جانباً منها ثم أضيف إلى ما كتبه من قبل آخرون لهم اتجاهات سياسية فنسب لابن عباس للاستعانة فيما يخص اتجاهاتهم . وليس لنا دليل على كل ماذكرناه وانما هي احتمالات تقبل النقض ولكن الحقيقه أن ابن عباس له علم غزير ومكانة علمية في زمانه .

ولم يستقر لابن عباس قرار فقد أخذ ينتقل من المدينة إلى مكـــة فالطائف وسبب ذلك أن مكـــة والمدينة كانتا في أوائل الدولة الأموية مسرحا للحروب فوجد ابن عباس الخير له أن يسكن بلداً آخر على أن يكون قريبا من مكـــة والمدينة ومن الحجاج والمعتمرين فاتخذ من الطائف مكانا مناسبا لنشر معارفه . وقد كان في أوائل حياته بمكـــة أيام حادثة مقتل الحسين ﷺ سنة ٦١هـ . وربما لهذه الحادثة من أثر في نفسه أدت إلى انتقاله إلى الطائف في زمن عبدالملك بن مروان الذي تولى الخلافة ٦٥هـ وبعد أن حاصر الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الله بن الزبير بمكـــة وكان ما كان من أمر ذلك الحصار على مكـــة وأهلها وهذا ما دفع بابن عباس للاستقرار بالطائف حتى ذهب بصره في أواخر حياته لبكائه على الحسين و الحسن ﷺ . ولما مات ابن عبـاس سنة ٦٨هـ قال جابر (مات أعلـم الناس)[٢٤] وصلى عليـه محمد بن الحنفيـــة بن أبي طالب ﷺ . يروى عن عطاء قوله (ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس أكرم فقها وأعظم خشية . أن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم في واد واسع[٢٥] .

فلما جاء العصر العباسي صنفت المسائل المتشابهة في باب واحد واشتهرت مكـــة في العلوم النقلية لأنها مختصة كما يقول ابن خلدون[٢٦] بالملة الإسلامية وأهلها بينما العلوم العقلية والطبيعية مشتركة بين الأمم لأن الإنسان يهتدي إليها بطبيعة فكره حيث اشتهرت الأمصار الأخرى بالعلوم العقلية . وكانت المساجد أكبر المعاهد للدراسة كالحرم المكي والمدني فكانت تقوم مقام المدارس والجامعات في العصر العباسي[٢٧] . كما كانت تعقد مجالس المناظرات في بيوت الفقهاء – كفقهاء مكـــة – وفي حلقات التدريس في المسجد الحرام .

واستمر التعليم في الحرم المكي أيام العباسيين فلم نعثر على مدارس أخرى بمكـــة في العصر العباسي الأول ولكن نجد المسجد الحرام يخرج العديد من العلماء وهذا يدل على استمرار الحياة الفكرية في المسجد المكي الشريف فقد استنتجنا ذلك بعد دراستنا لحياة الكثير من العلماء، فوجدناهم أما أخذوا العلم بمكـــة أو جلسوا للتدريس في حرمها أو جاوروا فيها أو كتبوا كتبا أو نحو ذلك . وامتاز العصر الإسلامي الأول وخاصة العصر العباسي بالرحلة في طلب العلم، فالرحلة من ميزات العلماء، وأنشطهم وقتئـــذ المحدثون :

فهاهو **يحيى بن يحيى الليثي** البربري الأصل الأندلسي النشأه رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع من مالك الموطأ في المدينة المنورة ووصل إلى مكـــة فسمع من سفيان بن عيينه ثم رحل إلى مصر .

وذاك **مسلم بن خالد** رحل من نيسابور إلى الحجاز والعراق والشام وغيرها . كيف لايرحلون إلى مكـــة والمدينة وفيها مدارس أصيلة في علوم النبوة الإسلامية وفيها أكبر المصادر وخاصة فيما يتعلق بالحديث وما يبنى عليه من فقه وما يتصل بذلك من أخبار وسير لأن مكـــة منشأ النبي ﷺ والمدينة مهاجرة وكلاهما منبت الصحابة من المهاجرين والأنصار سمعوا من أقواله وأفعاله .

وكانت حركة الحج الدائمة سببا في اتصال العالم الإسلامي بعلماء مكـــة والمدينة يروون عنهم فيرجعون وينشرون ما تلقوا . وخير دليل على ذلك ما نراه في تراجم المحدثين والأخبار فقد جاء إلى مصر (نافع) مولى ابن عمر وحامل علمه وفقه الحجاز وشيخ مالك(٢٨) .

وعطاء بن أبي رباح المتوفي ١١٤هـ واسمه أسلم القريشي الجمحي وقيل الفهري مولاهم أبو محمد المكي . روي عن عتاب بن أسيد وعثمان بن عفان وسمع أبي هريرة وسعيد الخدري ومعاوية والعبادلة الأربعة ﷺ وغيرهم . وروى عنه الزهري وعمرو بن دينار وأيوب السجستاني وابن جريج وابوحنيفه والليث بن سعد . والملاحظ أن تلامذته عاصروا الدولة العباسية وكانت مدرسة عطاء في مكة بالمسجد الحرام إذ قال أبوحنيفة كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة . وقال ربيعة الرأي فاق عطاء أهل مكـــة في الفتوى ونشأ عطاء بمكـــة وانتهت له الفتوى فيها وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث . قال

الزهري : قدمت على عبد الملك بن مروان فقال : من أين قدمت يازهري ؟ قلت : من مكة . قال : فمن خلفت في أهلها قلت : عطاء بن أبي رباح[٢٩] .

وعمرو بن دينار المتوفى ١٢٦هـ كان فقيه أهل مكـة بعد عطـاء كما قال الفاكهي : عالم أهل مكـة في زمانه . وتلامذته ابن جريج وسعيد والفيانان والحمادان ومالك وهشيم وغيرهم[٣٠] . ومن تلامذة ابن عباس عبيد الله بن أبي يزيد المكي المتوفي ١٢٦هـ وكان مصاحبا له[٣١] . وفي ١٢٩هـ توفي يزيد بن أبي القعقاع الزاهد أخذ عن ابن عباس وقرأ عليه نافع والناس . وممن أخذ عن ابن عباس عبدالعزيز بن رفيع المكي المتوفي ١٣٠ هـ عن تسعين سنة . وقرأ على ابن عباس يزيد بن رومان المدني وهو من شيوخ نافع في القراءة وتوفي في ١٣٠هـ . وكذلك عبد الله بن أبي نجيع المكي المفسر صاحب مجاهد[٣٢] . روى عن مجاهد المثنى بن الصباح اليماني بمكة[٣٣] . واشتهر عن داود بن علي بن محمد بن عبد الله بن عباس والي مكـة فصاحته في الخطابه بمسجد الكوفة سنة ١٣٢هـ والمسجد الحرام بمكة .

وفي خلافة أبي جعفر المنصور حدث تدوين العلوم كالحديث والفقه والتفسير . ففي مكـة صنف بن جريج بينما صنف الإمام مالك الموطأ في المدينة وغيرهما[٣٤] . وقبل ذلك كان العلماء يتكلمون من حفظهم ومن صحف غير مرتبة[٣٥] .

وشجع المنصور الشعر فقد كان في طريقه إلى مكـة ومعه بشار بن برد وقد وهب له بردة لأن المنصور قال بيتا من الشعر وأجازه بشار بيت آخر من الشعر وهذا يدل على صحبة الشعراء للخليفة وتشجيعه لهم . كما كان المنصور خطيبا مفوها وأديبا خطب بمكـة فقال : أنا سلطان الله في أرضه واشهر خطبه السياسية في موسم الحج[٣٦] .

وفي ١٤٦هـ توفي سديف بن إسماعيل بن ميمون مولى بني هاشم وهو شاعر حجازي من أهل مكـة حالك السواد شديد التحريض علي بني أميه متعصب لبني هاشم أظهر ذلك في أيام الدولة الأموية وعاش إلى زمن المنصور فتشيع لبني علي وقتله عبد الصمد بن علي عامل المنصور على مكـة وكان له علم في الحساب والجبر[٣٧] .

وفي ١٤٨هـ توفي شبل بن عباد قارئ أهل مكـة وتلميذ ابن كثير[٣٨] . وفيها كانت وفاة الإمام جعفر الصادق توفي بالمدينة سنة ١٤٨هـ وأمه بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق[٣٩] . وولد جعفر الصادق بمكـة بالدار المعروفة بدار مولد جعفر الصادق بدار

أبي سعيد بقرب دار العجلة لأن على بابه حجرا مكتوبا فيه (هذا مولد جعفر الصادق) ودخله النبي ﷺ وأن بعض المجاورين أمر بعمارته سنة ٦٢٣هـ ويقال لهذا الموضع مولد جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار والله أعلم بحقيقة ذلك[٤٠].

وابن شهاب الزهري نسبة إلى بني زهرة من قريش مكـــة استوطن الشام وتردد على الحجاز وهو أسبق الناس إلى تدوين علمه[٤١] في الحديث والتفسير.

ومن علماء القرن الثاني الهجري ممن أخذوا عن علماء مكـــة أو درسوا في المسجد الحرام ابن إسحق المتوفى ١٥٠هـ وقد صنف للمنصور السيرة النبوية والمغازي إذ قال له : اذهب وصنف كتابا في المغازي والسيرة.

وأبوحنيفه المتوفى سنة ١٥٠هـ من علماء التشريع الإسلامي في العصر العباسي الأول وهو ممن عاصر المنصور. وفي هذا العصر دونت كتب العربية واللغة والتاريخ وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة[٤٢].

وفي سنة ١٥٠هـ توفي إمام الحجاز أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي المكي أخذ عن عطاء ولزمه ثماني عشرة سنة وعطاء تلميذ ابن عباس وابن جريج أول من صنف الكتب في الحجاز. كما أن سعيد بن عروبه أول من صنف في العراق وكان ابن جريج من أوعية العلم على حد قول الإمام مالك ويتتبع الأشعار العربية والأنساب[٤٣]. وابن جريج كثير الحديث وأول المؤلفين فيه ومن العلماء الأعلام في مدرسة مكـــة تلقى عنه الأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينه وكثيرون. وابن جريج من العلماء الذين وصلوا إلى مكـــة فأخذوا منها فكرة جمع أحاديث عصره ونشروها في بلاد أخرى أو نشرها تلامذتهم.

وهنا بدأ التدوين على نطاق واسع إبان قيام الدوله العباسية لا في الحجاز فحسب بل في سائر ديار الإسلام. وحدث تصنيف الكتب ليس في التفسير والحديث فحسب بل في الأنساب والشعر واللغه فان تلامذة ابن عباس أولئك الذين أخذوا عنه في مدرستهم الكبرى المسجد الحرام ومنهم عطاء الذي صنف أول التصانيف كان ذلك بمكـــة وقد درس عطاء على ابن عباس ثماني عشرة سنة فتصدر حلقة يملي على تلامذته ويصنف ويتتبع وتلك لعمري طريقه الباحث في العلم.

ومن تلامذة واصل بن عطاء أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥١هـ فهو أكبر شيوخه(٤٤) وحج أبوحنيفة مع أبيه في السادسه عشرة من عمره وشهد عبد الله بن الحارث أحد الصحابة وهو يحدث بما سمع عن رسول الله ﷺ وقد اجتمع عليه الناس في المسجد الحرام فسمع ابوحنيفه منه حديثا(٤٥) .

وهكذا فان مدرسة المسجد الحرام لها أهمية في إرساء قواعد العلم والمدارس الفقهية ويبدو أن تلامذة ابن عباس قد تخصصوا شأن أستاذهم وشيخهم ابن عباس بدليل أن تلامذتهم أخذوا من أكثر من واحد منهم أو أن المسجد الحرام بحلقاته الكثيرة يتصدرها تلامذة ابن عباس وكل واحد منهم أخذ يختص بموضوع واحد لأننا نجد أن طلابهم درسوا على أكثرهم فمثلا عثمان بن الأسود المكي المتوفي ١٥٠هـ أخذ عن مجاهد وطاووس وكلهم من تلامذة ابن عباس . والأوزاعي المتوفي ١٥٧هـ عالم الشام رحل إلى مكـة وأخذ العلم من عطاء الذي أدرك مائتي صحابي ونشأ في مكة . وابن شهاب وعطاء من تلامذة ابن عباس ورحل عدة رحلات إلى الاماكن المقدسة(٤٦) .

وأبو عبد العزيز بن أبي رواد المتوفي ١٥٩هـ قد روى عن عكرمة وسالم وسمع معروف بن مشكان المتوفى سنة ١٦٥هـ قارئ مكـة وأحد أصحاب ابن كثير سمع من عطاء بن أبي رباح الذي أخذ عن ابن عباس في الحرم المكي الشريف .

ويعتبر سفيان الثوري المتوفي ١٦١هـ سيد القراء سكن مكـة والمدينة فطلبه المهدي الخليفة العباسي فتوارى واختفى في البصرة ومات متخفيا وله كتب كثيرة(٤٧) .

ويبدو أن المسجد الحرام أصبح مدرسه جامعة يأتي إليها طلاب العلم لينهلوا من علومها ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا ذلك العلم الذي نهلوه من تلامذة ابن عباس أو تلامذة تلامذتهم . ففي ١٧٠هـ توفي عالم البصرة وأحد فصحائها ومحدثيها وهو جرير ابن حازم الأزدي البصري وقد حضر دروس ابن الطفيل بمكة(٤٨) . وسمع الليث بن سعد الفهمي المتوفى سنة ١٧٥هـ من نافع وكان قد حج سنة ١١٣هـ ودرس عليه(٤٩) . كما سمع من شيوخ الحجاز الآخرين أمثال عطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة(٥٠) .

وجدير بالذكر أن المسجد الحرام بمكـة استمر مركزا للعلم فقد درس فيه محدث الشام ومفتي أهل حمص أبوعتبة إسماعيل بن عياش العنسي المتوفي سنة ١٨١هـ روى عن

على الرأي والقياس . وعاد يلقي دروسه على تلامذته في المدرسة الكبرى مدرسة الحرم الشريف بمكة .

كما كان لقاؤه بالإمام أحمد بن حنبل إذ علم عن الفقه الحنبلي والحديث . فخرج الشافعي ابن مكــة البار في علمه وهو يحمل رسالة فقهية جمع فيهــا أهل المدينة والعراق . وابن حنبل وقد عاصر الشافعي وكان يكثر المجاورة بمكــة ويسافر إلى اليمن وبغداد في طلب العلم فهو شأن الشافعي يرحل في سبيل المعرفه ثم يعود إلى مكــة للحج والمجاورة ولقاء العلماء .

فاصبحت مكــة مركزا للمناظرات الفقهية والمجادلات العلمية مما وسع دائرة التشريع وزاد في أصول الفقه وهنا أصبح الفقه الإسلامي متطورا ومرنا يصلح لكل زمان ومكان ووفقا لمصالح العباد .

ولما اتصل خبر بشر المريسي المعتزلي في زمن المأمون والذي يقول أن القرآن مخلوق وكل من شاء ناظره فيه . فاتصل هذا الخبر إلى عبد العزيز المكي فقام قاصدا بغداد وجرى بينهما مناظرات حاصلها أن عبد العزيز قد حجه بدليل فاستحسن المأمون ذلك من عبدالعزيز المكي ورجع القوم عن الاعتقاد الفاسد وقام المريسي محجوجا خائبا[٥٩] .

نستنتج مما أوردنا أن مدرسة ابن عباس التي أنجبت تلامذته في المسجد الحرام استمرت وليس أدل على ذلك من أن عطاء تلميذ ابن عباس علم ابن جريج أول من صنف في مكة . ولما كان الفقيه مسلم بن خالد الزنجي قد درس على ابن جريج فان الشافعي تلميذ مسلم بن خالد الزنجي علمه الفقه وسمع عليه وأخذ عنه علم الحجازيين وهكذا يصبح الشافعي تلميذاً لابن عباس أو لعلم ابن عباس وخريج مدرسته ومدرسة الحرم المكي الشريف . وزعم إمام الحرمين أن كتاب الشافعي الموسوم بالأم من كتبه القديمة التي صنفها بمكــة ولكنه جديد صنفه بمصر على قول ابن كثير[٦٠] .

وفي سنة ٢٠٦هـ توفي بمكــة مؤمل بن إسماعيل وكان من ثقاة البصريين روى عن شعبة والثوري[٦١] .

ومن علماء اللغه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ قال الخطيب البغدادي : كانت وفاته ببغداد وقيل بطريق مكــة واسمه يحى بن زياد بن عبد الله بن منصور شيخ النحاة

واللغويين والقراء . وكان يقال له أمير المؤمنين في النحو . روى الحديث عن حازم بن الحسن البصري عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك وقد عاصر الفراء المأمون(٦٢) .

ومن علماء المسجد الحرام الواقدي المتوفى ٢٠٧هـ(٦٣) . والحربي صاحب كتاب المناسك رحل من الحجاز وتلقى العلم عن علماء مكـــة والمدينة وكان طلبه للعلم مبكرا وولادته ١٩٨هـ(٦٤) . وتوفي بمكـــة إبراهيم بن أحمد الخواص وكان من أقران الجنيد والثوري ودفن في بطحاء مكـــة بعد أن أقام فيها مدة(٦٥) .

لقد كانت مكـــة مركزا مهما من مراكز التشريع الإسلامي في العصر العباسي شأن بغداد والمدينة وغيرهما . ومن عوامل نشاط التشريع في هذا العصر عناية الخلفاء العباسيين بالفقه والفقهاء . لأن الخلفاء العباسيين صبغوا كل مظاهر الدولـــة بصبغة دينية . كالمنصور الذي كان يؤثر الفقهاء بعطاياه والمهدي يناوئ الزنادقة ويتعقبهم . والرشيد يخص أبايوسف القاضي بالصحبة والملازمة . والمأمون يساهم مع العلماء في الجدل . ثم حرية الرأي ساعدت على نشاط التشريع . وكثرة الجدل أدى إلى كثرة التأليف ثم كثرة الوقائع وتأثر العقول بثقافات الأمم المختصة . ومن عوامل نشاط التشريع وتطوره في الأمصار الإسلامية أيضا اتساع القياس . ففي مكـــة ظل التشريع على حاله لاحتفاظها بالنص الوارد المتصل إلى النبي ﷺ ولذلك تدعى مدرسة الحجاز بمدرسة الحديث أما العراق فسميت بمدرسة الرأي والقياس(٦٦) .

واهتم فقهاء مكـــة بمناسك الحج، وشئون التجارة . أما المدينة فاختصت بشئون الإمامة وبأعمال الرسول ﷺ(٦٧) .

وكانت طريقة أهل الحجاز في نقل الحديث في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة ثم أصحابه مثل الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وأمثالهم . وكانت الحجاز (مكة والمدينة) أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ومن انتقل منهم للعراق كان شغلهم بالجهاد أكثر .

وانقسم الفقه إلى طريقتين الرأي والقياس للعراقيين ومذهبهم مذهب أبو حنيفة . وفقه أهل الحجاز وهم أهل الحديث وإمامهم مالك بن أنس والشافعي من بعده . على أن

القراء به فقد قرأ على أحمد بن محمد اليزي المقرئ مؤذن المسجد المكي قرأ عليه جماعة وكان حجة في القرآن الكريم وتوفي بمكـــة سنة ٢٥٠هـ[٨١] .

أما شيخ المحدثين الإمام محمد بن إسماعيل البخاري المتوفي سنة ٢٥٤هـ . وذكر الذهبي أنه توفي ٢٥٦هـ وكان قد خرج مع أمه وأخيه إلى مكـــة ورجعا هما وبقي هو يطلب الحديث من محدثي مكـــة والمدينة ثم طاف في سائر البلدان وظل يعمل في تأليف صحيحه هذا ست عشرة سنة وقيل أنه صنف الصحيح عند قبر رسول الله ﷺ في الحرم المدني في الليالي المقمرة إذ قال البخاري صنفت كتاب التاريخ عند قبر رسول الله ﷺ قال وأخرجت الصحيح في زهاء ستمائة ألف حديث وما أدخلت فيه إلا ماصح[٨٢] . ورحل مسلم بن الحجاج النيسابوري مؤلف صحيح مسلم وحل الحجاز والعراق والشام ومصر وروى عن أهلها[٨٣] .

وقاضي مكـــة الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي المتوفي ٢٥٦هـ بمكـــة فقد كان عالما بالأنساب وكتابة (أنساب قريش) وله علم بأخبار العرب صنف التصانيف منها مجموع في الأخبار ونوادر التاريخ مسماة (الموفقيات) من أربعة أجزاء ألفه للموفق ابن المتوكل الخليفة العباسي أيام كان يؤدبه في صغره وعدّله ابن النديم واحداً وثلاثين كتابا في الأدب والتاريخ . روى عن ابن عيينه وروى عنه ابن ماجه وتوفي وهو على القضاء وكانت وفاته بمكة[٨٤] .

حتى إذا أشرف القرن الثالث على نهايته قرأنا كتاباً لمؤرخ مكـــة الفاكهي الذي كان حيا في سنة ٢٧٢هـ لأنه ذكر في هذه السنة قضية تتعلق بالمسجد الحرام كما أورد الفاسي عنه ذلك[٨٥] . وفي أواخر القرن الثالث توفي سلمة بن شبيب النيسابوري نزيل مكـــة روى عن الستة سوى البخاري وتوفي سنة ٢٩٤هـ[٨٦] .

وفي القرن الرابع الهجري فتح مذهب الشافعي وكان أهم مراكزه بمكـــة والمدينة وقال السبكي كانت الإمامة والخطابة والقضاء في مكـــة والمدينة بأيدي الشافعية[٨٧] . وحافظت مكـــة على مكانتها العلمية وبقي المسجد الحرام مدرسة يلجأ اليها المجاورون من العلماء فلقد أصاب الخلافة العباسية الوهن والانحلال السياسي وحدث انقسام في العالم الإسلامي فصرفت الأموال على العلم لاستقلال أقسام الامبراطورية ماليا وسياسيا وسادت الحرية العلمية[٨٨] . ولا نقر من يرى أن الناحية العلمية أصابها الوهن طيلة

القرن الرابع الهجري ولم يبق في مكة إلا بعض البيوت التي كانت تتوارث العلم[٨٩]. فقد ظهر في هذا القرن طائفه من العلماء ممن حفظ لهم التاريخ ذكراً في مكة فمن علماء مكة في هذا القرن أحمد بن شعيب النسائي صاحب السنن فكانت وفاته بمكة عام ٣٠٣هـ فدفن بين الصفا والمروة على حد قول ابن الأثير[٩٠]. وابن جرير الطبري الفقيه المفسر المؤرخ القارئ توفي ٣١٠هـ وقد كان مدرسا في مكة[٩١].

وألف أبوبكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى بمكة سنة ٣١٣هـ وله تصانيف ولصاحبه الإشراف على مذاهب العلماء وروي آثار الصحابة كما روى عن الشافعي[٩٢]. وممن سمع الحديث بمكة من علي بن عبد العزيز البغوي القاضي المصري محمد بن بدر الصيرفي الكناني المتوفى سنة ٣٣٠هـ[٩٣].

وجاور بمكة القاضي عمر بن الحسن الهاشمي والذي ينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب واشتغل بمذهب الفقه الشافعي وكان إليه إمامة الجامع العتيق أثناء مجاورته وله إقامة الحج وإمامة الحرمين الشريفين[٩٤].

وتجد بمكة من يتدارس التصوف مثل ابن الأعرابي وهو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم مؤرخ من علماء الحديث من أهل البصرة توفى سنة ٣٤٠هـ تصوف وانتقل إلى مكة فكان شيخ الحرم المكي وتوفي فيها وله كتب عديدة وهو غير ابن الأعرابي اللغوي . فابو طالب محمد بن علي المكي ألف كتاب قوت القلوب في التصوف . ومحمد ابن عبد الملك بن صيفون القرطبي مسند الأندلس المتوفى سنة ٣٩٣هـ رحل ولقي بمكة ابن الأعرابي[٩٥] وأخذ عنه .

وقد شهد هذا القرن من الفتن والحروب ما عطل الحج في بعض السنين عن مكة كحركات الزنج والقرامطه والعلويين وغيرها مما أخر الحجاز ماديا وعلميا . ولما زار المقدسي المتوفي ٣٨٠هـ مكة وصفها بالفقر وقلة العلم في القرن الرابع الهجري وإن كانت حركة العلم في الفقه والحديث لابأس بها لأن أكثر العلماء رحلوا للحجاز[٩٦]. ومن علماء خراسان من كان يجد في مكة مجالا علميا ينتفع منه ومن هؤلاء أبوالقاسم إبراهيم بن محمد النصرابادي المتوفى ٣٣٧هـ وهو من مشايخ خراسان وقد حج ستين حجة ثم جاور بمكة ومات فيها . وإبراهيم بن الأدهم بن الخواص وإبراهيم ستنبه وهم البراهمة الذين عرفوا بالعلم والورع والزهد[٩٧]. فقد دخل إبراهيم بن الأدهم مكة

وصحب علماءها وحج ماشيا من بلخ إلى مكــة والمدينة وعاد إلى بلخ[٩٨] . ومحدث بغداد ومفتيها دعلج بن أحمد السجري المتوفي ٣٥١هـ اشترى داراً بمكــة تسمى دار العباسية بثلاثين ألف دينار من أموال تجارته[٩٩] . وقال المقدسي المتوفي سنة ٣٨٠هـ سمعت بعض صدور القراء بمكــة يقول ما رأينا ولا سمعنا أن أحداً أم خلف هذا المقام (مقام إبراهيم) بغير قراءة ابن كثير إلا في هذا الزمان فقد كانت القراءات بمكــة على حرف ابن كثير[١٠٠] .

وشهد القرن الخامس علاقات علميه وطيدة بين بغداد ومكة . ومن مشاهير علماء الحرم المكي الشريف في القرن الخامس الهجري عبد الله بن أحمد بن أبوذر الهروي الحافظ المتوفى سنة ٤٣٤هـ وقد كانت إقامته بمكة، والهروي نسبة إلى (هراة) في خراسان . وتزوج من العرب على حد قول ابن الأثير[١٠١] . وأقام بالسروات والسروات جبال في الحجاز وكان يحج كل سنة يحدث في الموسم ويعود إلى أهله وصحب القاضي أبابكر الباقلاني . ومن علماء مدرسة الحرم في مكــة عبد الله بن يوسف أبو محمد الجويني المتوفى ٤٣٨هـ والد إمام الحرمين أبي المعالي . لقد كان إماماً في الشافعية وفقيها تعلم الفقه على أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكي كما كان عالما بالأدب وغيره من العلوم[١٠٢] .

وللشعر دولة في مكــة حتى أن بعض أمرائها كان ممن يقول الشعر ومنهم شكر العلوي الحسيني المتوفى سنة ٤٥٣هـ أمير مكــة فمن قوله :

قوض خيامك عن أرض تضام بها — وجانب الذل إن الذل مجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة — فالمندل الرطب في أوطانه حطب[١٠٣]

ومن الأمراء الشعراء أمير مكــة أبوالحسن علي بن عيسى بن حمزه بن سليمان بن وهاس بن داود السليماني الحسيني وقد مدح الزمخشري صاحب الكشاف شعرا[١٠٤] .

وشهد هذا القرن من النساء العالمات في مكــة (كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية توفيت بمكــة ٣٦٣هـ على قول ابن الأثير وأضاف الذهبي أنها توفيت عام ٣٦٥هـ عن مائة عام بمكــة وكانت تروي صحيح البخاري هناك في البلد الأمين وإليها انتهى علو الأسناد للصحيح إلى أن جاء أبو الوقت[١٠٥] . وظلت مكــة ملجأ العلماء المضطهدين فقد

لجأ أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني من خراسان وغيرهما سنة ٤٥٥هـ إثر تعقب طغرل بك على الشافعية والأشعرية فخرجوا إلى مكـة وأقاموا فيها أربع سنين فلما جاءت الدولة النظامية أحضروا واكرموا[١٠٦] . لقد أقام أبو المعالي بمكـة أربع سنين يدرس في الحرم المكي الشريف ويفتي حتى لقب إمام الحرمين . أما أبو القاسم القشيري فهو عبدالكريم بن هوازن المتوفى ٤٦٥هـ صاحب (الرسالة القشيرية) في التصوف (وعيون الأجوبة في فنون الأسئلة) المخطوط في مكتبة أزاد بعليكرة الهند وغيرها كان فقيها أصوليا ومفسرا[١٠٧] . وكاتبا قضى مدة طويلة بمكـة عاد من مكـة في أيام دولة ألب أرسلان بعد أن أحضره نظام الملك وأحسن إليه. وكان إذا دخل القشيري والإمام أبو المعالي الجويني إمام الحرمين على نظام الملك يقوم لهما ثم يعود فيجلس في مسنده كما هو ويقول نظام الملك : أنهما يثنون على بما ليس في فيزيدني كلامهم عجبا وتيها[١٠٨] . وعاد أبو القاسم القشيري في أيام نظام الملك الوزير السلجوقي فأحسن إليه وأخذ مجلسه في المدرسة النظامية يعظ الناس . وحدثت مناظرة سنة ٤٧٥هـ بين ابن العميد وإمام الحرمين بحضرة نظام الملك الوزير السجوقي[١٠٩] .

وذكر ابن الأثير في حوادث ٤٧٥هـ مناظرة حدثت بين أبي المعالي الجويني إمام الحرمين وبين الشيخ أبو إسحاق الشيرازي بحضرة نظام الملك وذلك في ساوه . والشيرازي المتوفى ٤٧٦هـ عالم أكثر الشعراء في مراثيه وجلس أصحابه في المدرسة النظامية ثلاثة أيام للعزاء . وهذا يدل على مكانة إمام الحرمين الذي يدعى إلى بلاد أخرى لمناظرة علماء تلك البلاد كما حدث بين الجويني والشيرازي أو بين ابن العميد وإمام الحرمين . وبتشجيع من وزراء الدولة العباسية . ولذا لمكة وعلمائها مكانة لدى الوزراء في الخلافة العباسية .

وأبو المعالي هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري إمام الحرمين المتوفي سنة ٤٧٨هـ وهو الإمام المشهور في الفقه والأصول وغيرهما من العلوم . وسمع الحديث من أبي محمد الجوهري وغيره وتوجه حاجاً وجاور بمكـة أربع سنين يدرس ويفتي ويتعبد وينشر العلم ولذلك سمي إمام الحرمين وعاد إلى نيسابور بعد ولاية السلطان ألب أرسلان واستيزاره نظام الملك وقد أجاز له أبو نعيم الحافظ صاحب الحلبة . وقد كان إمام الحرمين أحسن من كتب في أصول الفقه من المتكلمين بكتابه (البرهان) وله مؤلفات منها (النهاية) أو نهاية المطلب في عشرين مجلدا في الفقه و(الشامل) في أصول

الدين وهو كتاب في الطريقة أملاه أبو المعالي وأوسع القول فيه ثم لخصه في كتاب (الإرشاد) . وكان أبو المعالي قد جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني في علم الكلام . ثم انتشرت بعد ذلك علوم المنطق وقرأه الناس . ولأبي المعالي إمام الحرمين تاليف في المواريث على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه[١١٠] . وقد بنيت له المدرسة الميمونة النظامية وأقعد فيها مدرساً ثلاثين سنة وأخذ طريق البحث والنظر والتحقيق[١١١] . وكان يعقد بين يدي أصحاب الجويني (الإمام المفرد) في كل يوم ثلثمائة من الأئمة والطلبة . ولما مات الجويني وكان خطيبا مشهورا كسر منبره وحزنت عليه نيسابور بأسرها فلم تفتح الأبواب في البلد ووضعت المناديل على الرؤوس عاما بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه[١١٢] .

وممن أقام في مكـة من علماء الأندلس أحمد بن عمر بن أنس الزنجي العذري أبو العباس المعروف بابن الدلائي المتوفى سنة ٤٧٨هـ وهو من أفاضل علماء الأندلس من قرية ولاية من أعمال المرية وإليها نسبته . أقام ثمان سنوات بمكـة أيام صباه فأخذ عن علمائها وألف كتاب (المسالك والممالك) قيل أنه من أجل ما صنف في موضوعه (ودلائل النبوة). وفي سنة ٤٨٨هـ حج الإمام الغزالي وصنف هناك بمكـة كتابه الموسوم (إحياء علوم الدين) وترك التدريس بالنظامية ويعتبر كتاب (المستصفى) من أحسن كتب أصول الفقه[١١٣] . لقد كان تناول العلماء والأساتذه بين مدرسة المسجد الحرام والنظامية بنيسابور وغيرهما وزياراتهم لهما كبير الأثر في تطور العلوم . ففي جامعة مكـة يكون لقاء العلماء ومناظراتهم وهم من كل حدب وصوب يحملون آراءهم وكل يدلي بحجته ويكون تصنيف الكتب لأنها البلد الأمين وفيها لقاء علماء المسلمين وكبار المجتهدين في مختلف فروع علوم اللغه والدين . وجاور في مكـة حتى الوزراء ومنهم محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم ظهير الدين ابوشجاع المروذاوري المتوفي ٤٨٨هـ وكان وزير المقتدي بالله . لقد جاور بالحرمين إلى أن مات كهلا وكان دينا عالما من محاسن الوزراء كان يبيع الخطوط الحسنه قبل الوزارة ولما عزل من الوزارة قال :

تولاهـــا وليس لـه عـدو   وفارقهـــا وليس لـه صديق[١١٤]

وبعد وفاة أبو المعالي الجويني كان يقدم الشافعية أبا القاسم بن إمام الحرمين عبدالملك الجويني وقد حدثت فتنه في سنة ٤٨٩هـ بين الطوائف الإسلامية وبين الكرامية

فانتصرت سائر الطوائف الإسلامية كالشافعية والحنفية على الكرامية. ولما قتل ابوالقاسم بن إمام الحرمين سنة ٤٩٢هـ بنيسابور وكان خطيبها وثب العامة على قاتله وقتلوه[١١٥].

وفي القرن السادس من تاريخ الدولة العباسية ظهرت مدارس أخرى مع احتفاظ المسجد الحرام بمكانته العلمية ولابد من أدلة تاريخية تثبتها بالعلماء الذين وفدوا إلى مكـــة وجاوروا فيها ودرسوا في مسجدها رغم أن هذا القرن والذي يليه كانا حافلين بالأحداث التاريخية التي هدت كيان الدولة العباسية فاضعفتها وظهرت خلافة فاطمية في مصر - وسيطر على الحرمين العبيديون أو المهديون ثم الأيوبيون واليمنيون . ومن جهة أخرى النزاع بين أمراء مكـــة أنفسهم حول الإمارة . إلا أن حركة التعليم استمرت في مكـــة فظهرت المدارس في التاريخ الإسلامي أو الجامعات كالنظاميات والمستنصرية إلا أن العلاقه العلمية وطيده بين الحرم المكي الشريف وبين هاتيك المدارس فنجد خير مثال على ذلك. أن الكيا هراس الطبري واسمه ابوالحسن علي بن محمد المتوفي سنة ٥٠٤هـ وكان من اعيان الفقهاء الشافعية اخذ الفقه عن إمام الحرمين الجويني ودرس بعده في النظاميه ببغداد[١١٦]. وهذا يدل على أن الحرمين مركز من مراكز العلم في هذا العصر العباسي الاخير وان إمام الحرمين له مكانته العلميه حيث يفد إليه طلاب العلم ثم ياخذون عنه ويعودون للتدريس في النظاميات وهي تشبه الجامعات أو قل اولى الجامعات في التاريخ الاسلامي. فاذا كان الامر كذلك يصبح الحرم المكي والمدني مصادر تمد تلك الجامعات بالعلماء والاساتذه الذين تصدوا للتدريس فيها.

أما الغزالي الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ فهو حجة الإسلام أقرانه من تلامذة الحرم وأساتذة المسجد الحرام أمثال إمام الحرمين . وصار الغزالي في أيام إمام الحرمين مقيدا مصنفا وإمام الحرمين . وكان مجلس نظام الملك يجمع الفضلاء وللغزالي فيه مناظرة الفحول في فنون العلم فأقبل نظام الملك عليه فرسم له تدريس المدرسة النظامية ببغداد وصنف كتبا لم يصنف مثلها ثم حج واختار الحرمين وتوفي بطوس خراسان قيل أن تصانيف الغزالي لو وزعت على أيام عمره اصاب كل يوم كراس . لقد كان الغزالي من فحول تلامذة أبي المعالي عبد الملك الجويني إمام الحرمين وقد بلغ مبلغ التدريس من بين ثلثمائة تلميذ من طلاب العلم الذين ضمتهم حلقه إمام

الحرمين . ومما ذكره ابن خلكان في ترجمة إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨هـ أن تلامذة إمام الحرمين كانوا قريبا من أربعمائة[١١٧] .

وذكر ابن جبير أن الإمام الغزالي أقام بمكـــة ودعا الله بدعوات فاستجاب الله دعاءه .

ومن تلامذة إمام الحرمين ابن سعد عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري الإمام ابن الإمام المتوفي ٥١٤هـ أخذ العلم من قرابته واستفاد من أبي المعالي الجويني إمام الحرمين وسمع الحديث من جماعة ورواه وكان حسن الوعظ .

ومن طلاب الجويني إمام الحرمين الشهاب أبو المحاسن عبد الرزاق بن عبد الله المتوفي ٥١٥هـ وزير السلطان سنجر وهو ابن أخي نظام وكان يتفقه قديما على إمام الحرمين الجويني ويفتح وأوقع[١١٨] . حتى الوزراء طلاب العلم أخذوا علمهم عن أئمة الحرم المكي والمدني وجاور سهل بن محمود بن محمد بن إسماعيل البراني – (والبرانية) – قرية من قرى بخارى – خرج إلى مكـــة فأغارت الأعراب على الحاج ولكنه بقي هو وسكن مكـــة ثم خرج إلى اليمن وعاد إلى خراسان وكان إماما مناظرا واعظا توفي ٥٢٤هـ .

وممن تفقه على أبي المعالي عبد الملك الجويني وأقام عنده بمكـــة حتى ٥٢٥هـ محمد بن أحمد الماهياني – وماهيان – قرية من قرى مرو وكذلك سمع على أبي المعالي محمد بن عمر بن عبد العزيز بن طاهر الحنفي المقرى من أهل بخارى حدث بالحرمين وكان أديبا مكثراً من الحديث توفي (بالأجفر) بطريق مكة . وسمع على أبي المعالي إمام الحرمين محمد بن عدي بن أحمد أبو النصر الأرعياني المتوفي سنة ٥٢٨هـ وأخذ الفقه على أبي المعالي[١١٩] . ومن رواة الحديث في مكـــة المكرمة هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين الشيباني الكاتب المتوفي ٥٢٥هـ سمع أبا طالب بن غيلان وهو راوي مسند أحمد بن حنبل والغيلانيات وغيرها[١٢٠] . أما محمد بن علي بن عبد الواحد الشافعي المتوفي ٥٢٨هـ وهو من طبرستان أقام بمكـــة وجمع فيها الحديث وحدث بشئ يسير . وهكذا أصبحت مكـــة مدرسة لجمع الحديث لأنها ملتقى العلماء الفضلاء من كل مكان . ولقد سمع إسماعيل بن عبد الملك بن علي الحاكمي المتوفي ٥٢٩هـ بنيسابور وتفقه على أبي المعالي الجويني وبرع في الفقه وكان رفيق أبي حامد الغزالي . وبذلك يعتبر أبو المعالي إمام الحرمين والإمام الغزالي مدارس علمية يأخذ عنهما تلاميذهما سواء

في مكـــة أو في العراق أو خراسان . وفي العام التالي توفي محمد بن الفضل بن أحمد بن محمد الفراوي (الف راوي) من أهل نيسابور سمع صحيح البخاري عن أبي المعالي الجويني وأبي القاسم القشيري والبيهقي لقد صار فقيها ومفتيا مناظرا وواعظا . وسمع بمكـــة إبراهيم بن أحمد بن الحسين أحمد بن حمدان الصميري من أبي معشر جاور عبد الله بن أحمد بن عبدالقادر بن محمد بن يوسف بن أبي الحسين بمكـــة سنين وسمع الحديث وتوفي سنة ٥٣٤هـ(١٢١).

حتى علماء الأندلس جاور منهم بمكـــة رزين بن معاوية السرقطي الاندلسي المتوفي ٥٣٢هـ صار إمام الحرمين بعد أن سكن مكـــة زمنا طويلا وتوفي بها وله تصانيف منها (التجريد للصحاح السته)(١٢٢) . وأقام الزمخشري بمكـــة فصنف كتاب (الكشاف) في الحرم المكي الشريف وبعد أن جاور به زمنا طويلا سمي جار الله وهو ينسب إلى زمخشر من قرى خوارزم . وهو العالم أبو القاسم محمود بن عمر بن جارالله الزمخشري المتوفي ٥٣٨هـ كان بالغا في علم اللغه العربية وعلم البيان والأدب والتفسير وله تصانيف حسنة ليس لأحد مثلها - على حد قول القزويني - في فصاحة الألفاظ وبلاغة المعاني مع إيجاز اللفظ وكتابه (الكشاف) في غاية الحسن لولا التعصبات الباردة على وقف الاعتزال(١٢٣) . وساعده على براعته اللغوية مكثه في الحجاز مدة غير يسيرة وسماعه بعض الأساليب العربية التي أثبتها في تفسيره(١٢٤) . وتوفي بعد رجوعه من مكـــة في جرجانه من أرض خوارزم وله كتاب (الجبال والأمكنة والمياه) لبعض البلدان والأماكن في عهده(١٢٥) . وفي مكتبة الحرم المكي الشريف كتاب اسمه (الغيلانيات) لمؤلفه أبي طالب محمد بن محمد بن غيلان البزاز ومولده سنه سبع وأربعين وثلاثمائة هجرية . روى عن أبي بكر الشافعي وغيره وتوفي ٤٤٠هـ وهو راوي الأحاديث المعروفة بالغيلانيات التي خرجها الدارقطني وهو من أعلى الحديث وأحسنه(١٢٦) .

حتى الأمراء والوزراء كانوا يأخذون عن علم الحرم المكي فقد حج نظر بن عبد الله الجيوش أبو الحسن الخادم المتوفي ٥٤٤هـ سبعا وعشرين حجة في نيف وعشرين منها أميرا وكان يحضر مجالس الحديث في الحرم المكي الشريف .

ومن بيوت أهل العلم والوزراء في الأندلس عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد بن حبيب الأندلسي المتوفي ٥٤٨هـ قضى عمره في طلب العلم وولى القضاء بالأندلس ثم

جاور بمكـــة وقدم العراق وأقام ببغداد ثم بخراسان . وكان غزير العلم والحديث واللغة والأدب . حتى نقيب مكـــة أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباسي المكي المتوفي ٥٥٤هـ كان فقيها سمع الكثير(١٢٧) . وفي حيدر أباد الهند مخطوطة كتبها أحد علماء مكـــة وهو الموفق بن أحمد المكي المتوفي ٥٦٨هـ وسماها (مناقب الإمام الأعظم) وهو غير المؤلف الذي يحمل نفس العنوان والذي كتبه ابن البزاز محمد بن محمد الكردي المتوفي ٨٢٧هـ(١٢٨) .

ووصف ابن جبير الرحالة المشهور في رحلته ٥٧٨هـ وصف مجالس العلم بالمسجد الحرام فقال والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم ويتصل بجدار مدخل الحرم مصاطب فيها النساخون والمقرئون . ومن علماء المسجد الحرام محمد بن جعفر أبو الحسن المكي المتوفي ٥٧٩هـ. وانتقل إلى مكـــة البندينجي الضرير الفقيه الشافعي المتوفي ٥٩٥هـ فجاور في مكـــة أربعين سنة وكان يدرس الفقه ويسمع الحديث ويتعبد(١٢٩) .

ولم تقتصر علوم مدارس مكـــة على العلوم الدينية واللغوية في هذا القرن فحسب بل تعدته إلى علوم أخرى فإن أبا العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان المتوفي في مكـــة ٥٨٥هـ كان عالما متبحرا في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والأصوليين والحساب والفرائض والنجوم والهيئه والمنطق وغير ذلك وأقام بمكـــة مجاورا حتى توفي فيها . حتى الكتابة كان لها محل في منهج التعليم بمكـــة فقد أنجبت أحسن الكتاب القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب المشهور لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه وكان يكثر الحج والمجاورة في مكـــة وبالمسجد الحرام مع اشتغاله بخدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كان يعظمه ويكرمه ويرجع إلى قوله حتى توفي في مكـــة سنه٥٩٦هـ(١٣٠) .

ومن مؤلفات ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن الجوزي المتوفي ٥٩٧هـ) كتاب مثير (عزم الساكن إلى أشرف الأماكن) وهو رقعة عن تاريخ مكـــة والمدينة .

وفي القرن الخامس والسادس للهجرة أصاب الناحية العلمية بمكـــة الوهن ولم يبق إلا بعض البيوتات توارثت العلم كما توارثت خطب الجمعة والإمامة في المسجد الحرام ومن اظهرها بيت الطبري ومنهم رضي الدين بن أبي بكر . وضعف العلم في مكـــة في العهد الفاطمي وبقي بيت الطبري وآل ظهيرة والنويري وغيرهم(١٣١) . ولعل سبب تفرق بعض علماء مكـــة في الأمصار يعود إلى عدم الاستقرار السياسي فيها من جهة وإلى

تشجيع الخلفاء وأصحاب السلطان للعلماء وتقريبهم فاندفعوا إلى الأمصار الأخرى التي يلقون فيها التشجيع .

ورغم ما تعرضت له مكـــة من اضطرابات خلال هذا القرن وخاصه اختلاف الأمراء ونزاعهم فيما بينهم من جهة وتدخل الدولة الفاطمية في مصر والأيوبية ثم الرسولية في اليمن والعباسية ببغداد حول الخطبة والسيطرة على الحرمين وما نجم عن ذلك من فتن وحروب وبالتالي عدم الاستقرار السياسي وهجرة بعض العلماء من مكـــة إلا أن البعض الآخر جاور في مكـــة رغم قلة المال وسوء الحال لأن تلك الأحوال المضطربة شملت وقتئذ العالم الإسلامي بأسره ولم تقتصر على مكـــة وحدها فلم تخل مكـــة من عالم أوقف نفسه لخدمة العلم أو فقيه ومحدث وواعظ أو قارئ وباحث وكاتب وجد في مكـــة خير مكان .

فقدم شيخ الحنفية للحج في إبان القرن السابع الهجري في ٦٠٣ وهو برهان الدين بن جهان وفي صحبته ثلثمائة فقيه(١٣٢) .

وممن استوطن مكـــة حسن بن علي بن أحمد البدوي سنة ٦٢٩هـ وحفظ القرآن بمكـــة وكان يقرأ السبع قراءات . ويقرأ في الفقه كتاباً للشيخ أبي إسحاق الشيرازي وسافر إلى العراق ثم رجع إلى مكـــة ثم منها إلى مصر وتوفي هناك سنه ٦٣٤هـ(١٣٣) . وشهد هذا القرن من مؤرخي مكـــة محب الطبري المتوفي سنة ٦٧٤هـ وهو المؤلف لكتاب (القرى لقاصد أم القرى) وهو فقيه الحرم ومصنف الأحكام تفقه ودرس وأفتى وصنف وكان محدث الحجاز وشيخ الشافعية(١٣٤) . وابنه جمال الدين ابن الشيخ محب الطبري المتوفي ٦٩٤هـ ولد بمكـــة وسمع صحيح البخاري وكتب الحديث والسنن وحدث وأفتى ودرس وولي قضاء مكة(١٣٥) . ومؤلف (تاريخ المستبصر) وهو يعقوب بن يوسف بن محمد الدمشقي المتوفي ٦٩١هـ المعروف (بابن المجاور) مؤرخ عالم بالحديث والسنة وفي كتابه عن مكـــة ما يعكس أحوالها الاجتماعية والاقتصادية في زمانه لأنه جاور بمكـــة وكتب عنها ما يغني الباحث عن تلك الفترة التاريخية .

وبعد لقد أوردنا أمثلة من بعض العلماء الذين نهلوا من مدرسة ابن عباس في المسجد الحرام بمكـــة أو بمدارس أخرى هناك . ورحل بعضهم في طلب العلم ولقاء المشيخة

فإنها مزيد كمال في التعليم بالرحلة لأن فيها في طلب العلوم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرحال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(١٣٦).

وبعد فقد عرضنا لأهمية المسجد الحرام في التعليم خلال العصر العباسي ودوره في نشر المعرفة بمنذ زمن مبكر . وقبل تأسيس الجامعات الإسلامية فهو أقدم مدرسة في التاريخ الإسلامي ثم هناك المسجد النبوي كمدرسة لها نصيبها في نشر الثقافة منذ صدر الإسلام واستمرت كالمسجد الحرام خلال التاريخ العباسي في المساهمة لبناء صرح الثقافة العربية الإسلامية العتيد .

وهناك مدارس في مكـة عدا المسجد الحرام منها :-

مدرسة الملك منصور غياث الدين بن المظفر أعظم شاه بن السلطان اسكندر شاه صاحب بنجاله من بلاد الهند على فقهاء المذاهب الأربعة . وكان ابتداء عمارتها في رمضان ٣١٣هـ والفراغ من ذلك في جمادي الأولى ٣١٤هـ وفي المحرم من هذه السنه وقفت ودرست بها للمالكية ولها وقف بالركانة أصليتان وأربع .... وماء(١٣٧) . ومن أوقافها حديقة سلمة بمكـــة وهي تقع قرب عين بالصفية المعروفة بالركاني بوادي مر من أعمال مكة المشرفة وسقية موقوفة أيضا على هذه المدرسة وتقع هذه المدرسة بالجانب اليماني(١٣٨) . وجدير بالذكر أن هذه المدرسة قد تبنى مشروع إنشائها ونفقتها وجميع تكاليفها من معاشات المدرسين والعلماء وحتى الطلبة ومصروفاتها التي هيأت لها مكانتها ورفعت من شأنها بين المدارس الأخرى السلطان المنصور غياث الدين .

ومدرسة محمد بن سام أسسها سنة ٥١٩هـ وقد ذكرها الفاسي في تحصيل المرام .

ومدرسة الأرسوفي بالقرب من باب العمرة أسسها العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفي . وهي معروفة بدليل وقف رباطه بتاريخ ٥٧١هـ إذ هي بقربه وقيل أن وقف المدرسة والرباط ٥٩١هـ(١٣٩) وعرف رباطه بقرب أبي رقيبة لسكناه به .

مدرسة الزنجبيلي ٥٧٩هـ وهي قرب رباط الزنجبيلي بأسفل مكـــة مما يلي التنعيم . والزنجبيلي هو عز الدين نائب عدن أوقفها على الحنفية وتعرف اليوم على حد قول الفاسي بدار السلسلة[١٤٠] . أو أن مدرسة فخر الدين نائب عدن على باب العمرة هي التي تعرف بدار السلسلة أوقفها على علماء الحنفية ٥٩٨هـ فاختلط بين هذه المدرسة ومدرسة الزنجبيلي . ومن غير المعقول أن تكون مدرسة ورباط في التنعيم بعيدا عن الحرم بينما ذكر الفاسي في مخطوطه العقد الثمين . أن مدرسة الأمير عزالدين الزنجبيلي على باب العمرة للحنفية وقفها ٥٧٩هـ ولكن نرى أنها ليست في التنعيم وبأسفل مكـــة وليس الرباط هناك وإنما باب العمرة وهو من أبواب المسجد الحرام وهنا أصبح خلط عند بعض المؤرخين بين باب العمرة ومكان العمرة الذي في التنعيم وبينهما مسافة بعيدة . أو ربما أن المدرستين واقعتان على باب العمرة قرب الحرم المكي وليس هناك مدرسة تبعد عن الحرم وقتئذ عدة أميال .

ومدرسة الملك الافضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن في الجانب الشرقي من المسجد الحرام وقفها على الفقهاء الشافعية وتاريخ وقفهـــا ٥٨٠هـ وهي من دار زبيدة[١٤١] .

ومدرسة طاب الزمان الحبشية عتيقة المستضيء وقال الناس عتيقة المستنصر بالله العباسي أوقفها على عشرة من فقهاء الشافعية . وتاريخ وقفها ٥٨٠هـ وقيل ٥٨٦هـ في شهر شعبان وهي من دار زبيدة[١٤٢] .

ويقرب هذه المدرسة بيمارستان المستنصر بن المستضيء الخليفة العباسي ويقع في الجانب الشمالي وقيل في الجانب الغربي من المسجد الحرام وتاريخ وقفه ٦٢٨هـ وفيه مكان خاص للرجال وآخر للنساء وهو واقع بأجياد مكة .

والمدرسة الشرابية وأسست في ٦٣٢هـ[١٤٣] وكان يدرس بهامذهب واحد هو المذهب الشافعي وذلك في صدر الإسلام إذ لم يكن وقتئذ مدارس على المذاهب الأربعة . وكانت المدارس تحت نظر عالم يعتنق نفس المذاهب للشخص الذي أسس المدرسة وهذا يدل على التخصص وإن كانت المناهج لا تخرج عن الكتاب المجيد وأحاديث الرسول ﷺ واستدلال العلماء .

ومدرسة النهاوندي بقرب الموضع الذي يقال له (الدريبة) قال الفاسي المتوفي ٨٣٢هـ أن لهذه المدرسة نحو مئتي سنة فهي والحالة هذه قد أوقفت في حوالي ٦٣٢هـ والله أعلم .

ومدرسة أبي بكر على ابن أبي زكريا أو مدرسة أبي على قول الفاسي وتقع قرب المدرسة المجاهدية وتاريخ وقفها ٦٣٥هـ وتعرف بأبي طاهر المؤذن العمري وقد كتب في حجر اسم واقفها مترجم بالإمام الشهيد وسنة وقفها ولم يعرف الناس حاله[١٤٤] .

ومدرسة ابن الحداد المهدوي وتاريخ وقفها ٦٣٨هـ وهي قرب مدرسة الأرسوفي[١٤٥] ذكرها الفاسي بمدرسة أبي الجواد المهدوي وقال : أنه أوقفها على المالكية وتقع قرب الشبيكه وتعرف بمدرسة الأدارسة وقد عرفت بمدرسة الأدارسه في وقت متأخر[١٤٦] .

وبني الأمير شرف الدين إقبال الشرابي وهو من خدام المستنصر بالله العباسي بنى مدرسة بمكــة على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام وهي من المدارس الشافعية ووقف فيها كتبا كثيرة وذلك في ٦٤١هـ وقد ذهبت الكتب شذر مذر . أما المدرسة فباقيه على حد قول القطبي المتوفي ٩٨٨هـ صاحب كتاب (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) . وقد صارت رباطا وفي هذا الرباط محل التدريس وبه كتب أوقفها أهل الخير ممن أدركناه[١٤٧] . وللشرابي أوقاف كثيرة من الكتب والمياه وغير ذلك بوادي مر ونخلة وبئر للشرابي يقع برباط الشرابي[١٤٨] .

أما الطبري صاحب كتاب (الأرج المسكي) والمتوفي ١٠٧٠هـ فيصف المدرسة الشرابية وهي مجاورة لرباط الشرابية[١٤٩] . وربما أنها في أيام القطبي صارت رباطا ثم عادت بجانب الرباط مدرسة في القرن الحادي عشر الهجري . وتقع عيون الشرابيات بوادي مر الظهران (وادي فاطمة) وقد أوقفها الأمير الشرابي المستنصري العباسي على رباطه المعروف برباط الشرابي[١٥٠] . ويذكر السنجاري أن شرف الدين أحد مماليك المستنصر بنى بمكة بيمارستانا بالقرب من باب الزيادة كما بني مدرسة على يمين الداخل إلى باب السلام وأوقف الكثير من الكتب في سنة ٦٤١هـ[١٥١] .

والمدرسة المظفرية عمّرها وأوقفها سنة ٦٤١هـ فخرالدين ابن الملك المظفر وهو الملك المنصور محمد بن علي بن رسول صاحب اليمن على يد الأمير فخر الدين الشلاج أمير مكـــة . أوقفها على الفقهاء الشافعية وبها درس حديث أظنه من عمل ولد المظفر(١٥٢) . ووصفها ابن بطوطة .

ومن أهم مكتبات مكة المكرمة :

مكتبة الحرم المكي الشريف : مثلما تساهم المدارس في نشر الثقافة والمعرفة سواء في مكـــة أو في أي مكان فإن المكتبات بجانبها لا تقل أهمية في نشر العلم .

وهناك أقدم مكتبات في التاريخ الإسلامي هي مكتبات المساجد ولما كان المسجد المكي والنبوي أقدم هاتيك المساجد لذلك ضمّا مكتبات فيها المصاحف وعلوم الدين لأنها المدارس الأولى في التاريخ الإسلامي .

ومكتبة الحرم المكي الشريف لابد وأنها نشأت منذ فجر الإسلام وفيها مصاحف وذكر من تلك المصاحف مصحف خطه زيد بن ثابت منتسخ سنة ١٨هـ وكان هذا المصحف مصحف أحد الخلفاء الأربعة وينقص منه ورقات كثيرة كبير الورقات واسعها كما قال ابن جبير "عايناه" أي نظرناه أو نظرنا فيه . وكان المصحف في قبة العباس أو القبة العباسية والقبة هذه هي التي سميت بقبة الكتب قال الغاسي(١٥٣) : قبة العباس قبة كبيرة بين زمزم وسقاية العباس ﷺ لحفظ الأشياء الموقوفة وما فيه من الربعات والمصاحف الشرفية منها مصحف عثمان ﷺ على ما يقال وفيها ما يقتضي أنها عمرت في زمن الناصر العباسي . وكانت موجودة قبل ذلك على ماذكر ابن عبد ربه المتوفي ٣٢٨هـ .

وأقول أن المهدي أول من اعتنى بقبة الكتب ١٦٥هـ فقد أنشأ قبتين إحداهما على السقاية التي كان يسقي فيها العباس . والثانية على بيت المحفوظات وكانت تحفظ بها المصاحف(١٥٤) . قال السيوطي في كتاب الأوائل : أول من عمر القبتين التي على الصحن التي بين زمزم وبيت الشراب المهدي(١٥٥) . وإن ورد أن سليمان بن علي بن عبد الله بن

العباس أول من بنى القبة التي على زمزم في موضع مجلس جده ابن عباس ﷺ وذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك .

وفي سنة ٣٦٧هـ شيد شخص يدعى الأمير شرف الدين مكتبة ومدرسة في الحرم المكي الشريف وذلك بالقرب من باب السلام وقد كان البناء بديعا وجلب للمكتبة كتبا متنوعه لا تحصى ثم قال المؤلف في الهامش : أن هذا البناء خرب بعد مدة فنقلت المكتبة إلى الرباط[١٥٦] . وذكر الأزرقي أن سيل سنة ٤١٧هـ دخل المسجد الحرام ووصل إلى خزائن الكتب فأتلف منها الشيء الكثير[١٥٧] . وأما خزانة الكتب المالكية فقد أنشأها الشيخ محمد بن عبد الله بن فتوح المكناسي في المقام المالكي من المسجد الحرام وأوقف بها كتاب (المقرب) الذي يتكون من ستة مجلدات وبالقرب من هذه الخزانة أقيمت أيضا خزانات كتب أخرى[١٥٨] . وقد رآها ابن جبير في رحلته ٥٧٨هـ فقال : وفي باب إبراهيم غرفة مع خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم[١٥٩] .

وجدد الناصر العباسي عمارة إحدى القبتين الكبيرتين المتقاربتين سنة٥٧٩هـ إلى جانب بئر زمزم من جهة الشرق . إحداهما وهي التي قرب زمزم معدة لمصالح المسجد الحرام كالمصاحف منها مصحف عثمان بن عفان ﷺ على ما يقال (والربعات) الموقوفة وحفظ الفوانيس والشمع والشمعدانات النحاس والمسارج النحاس والكراسي الخشب التي ترفع عليها الرباع وما أشبه ذلك من الأشياء الموقوفة لمصالح المسجد الحرام وكانت موجودة قبل الناصر إلا أنه جدد بناءها وقد عمرت عمارة بديعة بعد نقضها . وأول ما يلقي الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود . وفيه صندوقان فيهما المصاحف[١٦٠] .

ومكتبة رباط شرف الدين : وقد شيدت في سنة ٣٦٧هـ مكتبة ومدرسة ثم نقلت المكتبة إلى الرباط[١٦١] .

ومكتبة رباط مكة : أصدر ملك اليمن نور الدين بن صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٩٤هـ أمراً بإنشاء رباط مكـة وأوقف فيه نفائس من الكتب (كالمجمل) لأبي فارس (والاستيعاب) لابن عبد البر . وأصبح هذا الرباط من أعظم الأربطة في مكـة بالكتب

وعرف فيما بعد برباط الحضارمة[١٦٢] . وهكذا تصبح الأربطة أماكن للدرس إذ يلحق بها مكتبات كما في مكتبة رباط مكــة وغيرها .

مكتبة رباط الشرابي : وكان للأمير شرف الدين إقبال الشرابي مدرسة مجاورة للحرم أوقف فيها كتبا في مختلف الفنون وذلك سنة ٦٤١هـ وهذه المدرسة تقع على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام . وذهبت هــذه الكتب شــذر مذر في سنة ٦٤١هـ. والمدرسة بقيت وصارت رباطاً وفيه محل للتدريس وبه كتب أوقفها أهل الخير ممن أدركنا على حد قول القطبي المتوفى سنة ٩٨٨هـ[١٦٣] .

الدكتور علي أباحسين
مدير مركز الوثائق التاريخية

الهوامش

١ - ابن ظهيره، الجامع اللطيف ص ٣٢٩-٣٣٠ ط٢ مصر ١٩٣٨.

٢ - الخطيب البغدادي- تاريخ بغداد ١٧٣/١ مصر ١٩٣١م . وكحالة، معجم المؤلفين ٦٦/٦ دمشق ١٩٥٧م .

٣ - البغدادي، المحبر ص٢٨٩ حيدر أباد الهند ١٩٤٢.

٤ - الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣١٤/١ ط٣ حيدر أباد الهند ١٩٥٧ وتاريخ بغداد ١٧٣/١.

٥ - الذهبي تذكرة الحفاظ ٣٤/١ والخطيب البغدادي تاريخ بغداد ١٧٣/١ والشعراني، مختصر صفة الصفوة ١٣٦ النهضة بغداد ١٣٨٧ وابن الجوزي صفة الصفوة ٣١٤/١ ط١ حيدر أباد الهند ١٣٥٥.

٦ - العصامي، سمط النجوم العوالي ٣٢٨/١ القاهرة ١٣٧٩.

٧ - ابن الجوزي، صفة الصفوة ٣١٥/١ .

٨ - أحمد أمين، فجر الإسلام ٢١٨ ط٩ القاهرة ١٩٦٤م .

٩ - ابن الجوزي، صفة الصفوة ٣١٧/١ .

١٠ - السباعي، تاريخ مكة ٢٩٥/١-٢٩٦ ط٣ مكة ١٣٨٧هـ .

١١ - محمد صبيح عبد القادر، أبو جعفر المنصور ص٩ القاهرة ١٩٣٩م .

١٢ - الشعراني، مختصر صفة الصفوة، ص١٣٧ .

١٣ - الزركلي الأعلام ٢٢٨/٤، مطبعة كوستاتوماس ١٣٧٦هـ .

١٤ - البستاني . دائرة المعارف ٤٣٢/٣ بيروت، ١٩٦٠م .

١٥ - السباعي تاريخ مكة ٧٩/١ ط٢ مكة ١٣٨٠هـ .

١٦ - ابن كثير. البداية والنهاية ١٣٥/١٠ .

١٧ - السباعي تاريخ مكة ٩٧/١ .

١٨ - الأزرقي، أخبار مكة ٦٠/٢ ط٢ مكة ١٣٨٥هـ .

١٩ - السباعي، تاريخ مكة ١٣٣/١ ط٢ مكة ١٣٨٠هـ . وأحمد أمين، ضحى الإسلام،٧٣/١، ط٣، مصر ١٩٥٢م .

٢٠ – السباعي، تاريخ مكة ١٠٨/١–١٠٥ ط٣ مكة ١٣٨٧هـ . وأحمد أمين، ضحى الإسلام ٧٣/٢ و١٠٧ و١٣٩ ط٣ مصر ١٩٥٢م .

٢١ – حاجي خليفة، كشف الظنون ٤٣٨/١ و١٢٢٦ المطبعة البهية القاهرة ١٣٦٠هـ .

٢٢ – كحالة معجم المؤلفين ٦٦/٦ .

٢٣ – المسعودي، مروج الذهب ١٠١/٣ ط١. والبستاني دائرة المعارف ٣٣٢/٣ بيروت ١٣٨٥هـ . والعصامي سمط النجوم العوالي ٣٢٨/١ .

٢٤ – ابن الجوزي – صفة الصفوة ٣١٩/١ .

٢٥ – الإصابة ٩٣/٤ . وأحمد أمين . ضحى ١١/٢ ط٣ مصر ١٩٥٢م.

٢٦ – ابن خلدون . المقدمة ص ٣٦٤ .

٢٧ – أحمد أمين . ضحى ٢/ ٥٢.

٢٨ – ن.م.س ٧١/٢و٧٥ .

٢٩ – الفاسي . العقد الثمين ٨٤/٦–٨٩ مصر تحقيق فؤاد السيد .

٣٠ – الفاسي. العقد الثمين ٣٧٤/٦ و٣٧٥ القاهرة ١٣٨٦هـ .

٣١ – الذهبي. العبر في خبر من غبر ١٦٣/١ .

٣٢ – ن.م.س. ١٦٩/١ .

٣٣ – ن.م.س. ٢١٢/١ .

٣٤ – السيوطي . تاريخ الخلفاء ٢٦١ ط٢ .

٣٥ – أحمد أمين . ضحى ١١/٢ .

٣٦ – محمد صبيح عبد القادر . أبو جعفر المنصور ص١٢٠–١٣٨ القاهرة ١٩٣٩م .

٣٧ – دحلان – ٢/١/ط، مصر ١٣٠٥هـ . والفاسي . العقد ١٣٣/١ (مخطوط) . الزركلي . الأعلام ١٢٦/٣ .

٣٨ – الذهبي . العبر في خبر من غبر ٢١٠/١. والسيوطي ٢٧١ .

٣٩ – أبو الفداء. جـ٢ .ص٥ .

٤٠ – شفاء الغرام ٢٧٢/١ .

٤١ – أحمد أمين . ضحى . ٣٢٥/٢ . ط٢ مصر، ١٩٥٢م .

٤٢ – السيوطي . تاريخ الخلفاء ٢٦١ مطبعه السعاده مصر ١٩٥٩. وأحمد أمين. ضحى الإسلام ٢/ ٧٣ و١٠٧ ط٣ مصر ١٩٥٢م .

٤٣ – الذهبي . العبر في خبر من غبر ٢١٣/١ .

٤٤ – الذهبي . دول الإسلام ٧٤/١ حيدر أباد ١٣٦٤هـ .

٤٥ – أحمد أمين ضحى ١٧٨/٢ ط٣ مصر ١٩٥٢م .

٤٦ – ن.م.س ٩٨/٢ ط٣ سنة ١٩٥٢م . وعبد الرزاق قاسم الصفار . الإمام الأوزاعي. رسالة الماجستير ص ٣ الملحق ١٩٧٢م .

٤٧ – المقدسي . أحسن التقاسيم، ٩٧/١ ط٢ ليدن ١٩٠٦م والأعلام ١٥٨/٣ ط٢ .

٤٨ – الذهبي . العبر ٢١٥/١– ٢٥٨ .

٤٩ – المسعودي . مروج الذهب ٢٩٢/٦ باريس .

٥٠ – أحمد أمين . ضحى ٧٥/٢/ ط٣ مصر ١٩٥٢م .

٥١ – الذهبي . العبر ٢٧٨/١ .

٥٢ – أحمد أمين . ضحى ٥٧ . والأعلام ١٥٩/٣. ط٢ .

٥٣ – القزويني . آثار البلاد وأخبار العباد ٢٨٩ بيروت ١٩٦٠م .

٥٤ – المسعودي، مروج الذهب ٣٢٨/٦ باريس .

٥٥ – الذهبي . العبر ٣٠٤/١–٣١٨ .

٥٦ – ن.م.س ٣٢٦/١ .

٥٧ – الزركلي . الأعلام ١٥٩/٣. ط٢ .

٥٨ – القزويني . آثار البلاد وأخبار العباد ٢٨٩ و٤٥٧ بيروت ١٩٦٠ .

٥٩ – أبو زهرة، الشافعي ١٧–٣٢ (بتصرف) دار الفكر . مصر ١٩٤٨م والقزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ص٢٦٢ .

٦٠ – ابن كثير، البداية والنهاية ٢٥١/١٠–٢٥٢ .

٦١ – الذهبي . العبر ٣٥٠/١ .

٦٢ – ابن كثير، البداية ٢٠٧/١٠–٢١٠ .

٦٣ – الواقدي هو محمد بن عمر بن واقد الواقدي كان حناطا بالمدينة ورحل إلى بغداد وعالما بالمغازي والسير .

٦٤ – الحربي، المناسك ٢٦ الرياض ١٩٦٩م .

٦٥ – القزويني . آثار البلاد . ص٣٨٠ .

٦٦ – السباعي ١٣٣/١ و١٣٤ . ط٢ . مكة (بايجاز) .

٦٧ – أحمد أمين . ضحى، ١٦٣/٢. ط٢ . مصر ١٩٥٢م .

٦٨ – ابن خلدون . المقدمة . ص٤٤٢ و٤٤٥ .

٦٩ – السبكي، تاريخ التشريع الإسلامي ص١٩٧-٢٠٠ مصر ١٩٦٤م .

٧٠ – ابن كثير . البداية ٣٢٦/١٠ .

٧١ – الذهبي . العبر ٣٦٢/١ والزركلي الأعلام ١٦/٩ و١٧ ط٢ .

٧٢ – الذهبي . دول الإسلام ١٧٣/١ والعبر ٣٦٤/١ .

٧٣ – أحمد أمين . ظهر الإسلام ٣١٦/١ ط٣ مصر .

٧٤ – الذهبي . العبر ٣٧٧/١ .

٧٥ – ابن الأثير . الكامل ٥٠٨/٦ .

٧٦ – الذهبي . العبر ٣٦٧/١ و٣٩٩ .

٧٧ – الزركلي . الأعلام ٢٨٤/١ .

٧٨ – ابن الأثير، الكامل ٧٠/٧ بيروت ١٩٦٥م .

٧٩ – الأعلام ١٠١/١. وابن الأثير، ٥١١/٧ و٥٤٨ .

٨٠ – الطبري، الرسل والملوك ٢٠٨/٩ وابن الأثير ٨٢/٧ .

٨١ – الذهبي . العبر ٤٥٥/١ .

٨٢ – ابوالفداء، ٤٨/٢ .

٨٣ – أحمد أمين . ظهر الإسلام ٣٦٢/١ ط٣ .

٨٤ – الزركلي، الأعلام ٧٤/٣ ط٢ وابن خلكان . وفيات الأعيان ٢/ وأحمد أمين . ضحى ٣٤٤/٢ و ٣٤٥ .

٨٥ – الحربي . المناسك ٢٦ الرياض ١٩٦٩م والفاسي . العقد ٤١٠/١ .

٨٦ – العيون والحدائق- مجهول المؤلف تحقيق نبيلة عبد المنعم ٤٢/٤ .

٨٧ – متز . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢٩٤/١ ط٢ .

٨٨ – أحمد أمين . ظهر الإسلام ٢/٢/ط١ .

٨٩ – السباعي . ص١٤٦ .

٩٠ – ابن الأثير . الكامل ٩٦/٨ .

٩١ – ن.م.س. .

٩٢ – العيون والحدائق ٣١٩/٤ .

٩٣ – الكندي، الولاة وكتاب القضاة ص ٥٥٧ بيروت ١٩٠٨م .
٩٤ – ن.م.س /٥٦٩–٥٧٤ .
٩٥ – الذهبي . دول الإسلام جـ١ ص١٧٣ حيدر أباد الهند . والأعلام ٣٧٦/٢ .
٩٦ – أحمد أمين . ظهر الإسلام ٣١٦/١ ط٣ .
٩٧ – القزويني . آثار البلاد ص٤٦٧–٤٨٢ .
٩٨ – ابن كثير . البداية، ١٣٥/١٠ .
٩٩ – الذهبي . دول الإسلام ١٥٩/١ . حيدر أباد .
١٠٠ – المقدسي ٩٧/١ .
١٠١ – ابن الأثير ٥٣٥/٩ . وياقوت ٣٩٦/٥ بيروت ١٩٥٧م .
١٠٢ – ن.م.س ، ٥١٤/٩ و٥٣٥ .
١٠٣ – ن.م.س ١٩/١٠ بيروت ١٩٦٦م .
١٠٤ – الزمخشري، الجبال والأمكنة والمياه ص٦ النجف .
١٠٥ – ابن الأثير، ٦٩/١٠ و١٢٩و١٣٢ والذهبي، دول الإسلام ٢٠٠/١ .
١٠٦ – ن.م.س ١٠ /٣٣ بيروت ١٩٦٦م .
١٠٧ – ابن خلدون تاريخ العبر ٩٧٠/٣–٩٨٠ بيروت . ابن الأثير ١٠٤/١٠ بيروت ١٩٦٦م .
١٠٨ – ابن الأثير . ٨٨/١٠ و٢٠٩ . والسيوطي ٤٢٤ .
١٠٩ – ابن خلدون . تاريخ العبر ٩٨٣/٣ بيروت .
١١٠ – ن.م.س. المقدمة ص٤٦٥ مصر . بلا ت .
١١١ – ابن الأثير . الكامل ٦٩/١٠ و١٢٩ و١٣٢ والذهبي . دول الإسلام ٢٠٠/١ حيدر أباد الهند ١٩٦٤م .
١١٢ – دكتور ناجي معروف، علماء النظاميات ص٤٢ ط١ بغداد ١٩٧٣م . وابن الأثير . الكامل ١٤٥/١٠ بيروت، وابن دحية . النبراس . ص٩٩ بغداد ١٩٤٦، والقزويني. آثار البلاد ٣٥٣ بيروت ١٩٦٠م .
١١٣ – ابن خلدون . المقدمة ٤٥٥ مصر. بلا ت . والأعلام ١٧٩/١ ط٢ .
١١٤ – ذيل تجارب الأمم ٢/٣ مصر ١٩٤٦م .
١١٥ – متز ٢٥٢/١ ط٢ والسبكي . تاريخ التشريع الإسلامي ٢٥٢/٣ .
١١٦ – ابن الأثير . الكامل ٢٥٠/١٠–٢٥٢ و٢٩١ .

١١٧ - ن.م.س ٤٨٤/١٠ .

١١٨ - القزويني . آثار البلاد ٤١٣-٣٥٣ بيروت ١٩٦٠م وابن خلكان . وفيات الأعيان ٣٤١/٢-٣٤٣ . وناجي معروف . نشأة المدارس ص٨ بغداد ١٣٨٥هـ وابن جبير . ص٩٦ .

١١٩ - ابن الأثير ٥٨٧/١٠ و٥٩٤ بيروت ١٩٦٦م .

١٢٠ - ابن الجوزي . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٩/١٠، ٢٣-٢٤ .

١٢١ - ابن الأثير ٦٧١/١٠ بيروت ١٩٦٦م .

١٢٢ - ابن الجوزي . المنتظم ٨٠,٧٤,٦٥,٥٢,٤٠/١٠ (بإيجاز) .

١٢٣ - الأعلام ٤٦/٣ ط٢ .

١٢٤ - القزويني . آثار البلاد ٥٣٣ .

١٢٥ - أحمد أمين . ظهر الاسلام ٤١/٢ .

١٢٦ - الزمخشري . الجبال والأمكنة والمياه ٣/ وابن الجوزي . المنتظم ١١٢/١٠ .

١٢٧ - ابن الأثير ٥٥٢/٩ .

١٢٨ - ابن الجوزي . المنتظم ١٤١/١٠ و١٥٤ و١٩١ .

١٢٩ - العلوجي، مجلة بغداد العدد ١٢و١٣ مايس حزيران ١٩٦٤م . وابن جبير ص٦٨.

١٣٠ - ابن الأثير ٣٩٢/١٠ .

١٣١ - السباعي ١٤٦/٢ ط٣ مكة ١٣٨٧هـ والأعلام ٨٩/١ ط٢ .

١٣٢ - ابن الأثير . الكامل ٤٢/١٢ و١٥٥. ١٩٦٦م .

١٣٣ - الذهبي . دول الإسلام ٨٢/٢ ط٢ . حيدر أباد الهند ١٣٦٥هـ .

١٣٤ - العجيمي، هذه خبايا الزوايا ص٩ (مخطوط) بمكتبة أزاد بجامعة عليكرة في الهند .

١٣٥ - الذهبي . تذكرة الحفاظ ٢٥٥/٤ .

١٣٦ - الفاسي، العقد الثمين ٢٦٠/١-٢٦١ القاهرة . وابن خلدون . المقدمة ص ٥٠١ طبع مصر . والأعلام ٣٤١/٩ ط٢ .

١٣٧ - الفاسي، العقد الثمين ١١٧/١-١١٨ المطبعة المحمديه القاهرة .

١٣٨ - الفاسي . شفاء الغرام ٣٢٨ و٣٢٩ .

١٣٩ - الفاسي . شفاء ٣٣٠ والعقد الثمين ١٢٠/١ و١١٧ وتحصيل المرام . الباب التاسع والثلاثون (مخطوط) .

١٤٠ -الدكتور ناجي معروف . نشأة المدارس ص٨ والفاسي . العقد ١/١١٧-١١٨ . القاهرة . وشفاء الغرام ١/٣٢٨ و٣٣٠ مصر ١٩٥٦م .

١٤١ - الفاسي . تحصيل المرام في تاريخ البلد الحرام . الباب ٢٣ (مخطوط) بمكتبة الحرم المكي . وشفاء الغرام ١/٣٢٨ . والعقد الثمين ٩٨ و٩٩ .

١٤٢ - الفاسي . العقد ١/١١٧ و١١٨ و٣٢٨ . القاهرة . وشفاء الغرام ١/٣٢٨ .

١٤٣ - الدكتور ناجي معروف . مدارس مكة ص٧ والفاسي . شفاء ١/٣٢٨ و٣٣٧ القاهرة ١٩٥٦م .

١٤٤ - الفاسي . شفاء الغرام ١/٣٣٠، ١٩٥٦م، وتحصيل المرام مخطوط الباب ٢٣ . والعقد ١/١١٧ و١١٨ .

١٤٥ - د. ناجي معروف. مدراس مكة ص١١ . طبع بغداد ١٣٨٥هـ والسباعي١/١٣٣. ط٢ مكة (بايجاز) .

١٤٦ - الفاسي . العقد الثمين ١/١١٧ و١١٨ القاهرة . وشفاء الغرام ٣٣٠ . وتحصيل المرام . الباب ٢٣ (مخطوط) .

١٤٧ - القطبي . الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . ص١١٧ بهامش خلاصة الكلام . لزيني دحلان . والسنجاري . منايح الكرم (مخطوط) .

١٤٨ - الفاسي . شفا، ١/٣٣١ و٣٤٠ .

١٤٩ - الطبري. الأرج المسكي في التاريخ المكي ١/٣٣ .

١٥٠ - ابن فهد . أتحاف الورى ٢/١٩ (مخطوط) .

١٥١ - السنجاري . منايح الكرم ١/ص٢ (مخطوط) . وتحصيل المرام . الباب ٢٣ (مخطوط) .

١٥٢ - العقد الثمين ١/١١٧ و١١٨ . وابن بطوطة . تحفة النظار ١٠٩ مصر ١٣٢٢هـ وشفاء الغرام ١/ ٣٢٨ .

١٥٣ - ابن جبير . الرحلة . ص٦٨ . والفاسي . شفاء الغرام ١/٢٤٢ مصر ١٩٥٦م .

١٥٤ - الأزرقي . أخبار مكة ٢/٦٤ .

١٥٥ - باسلامة ٩٤ ط٢ عبد الله جمعة المعلمي . مكتبة الحرم الشريف . ماضيها وحاضرها ص ٣٢ مكة ١٣٨٨هـ .

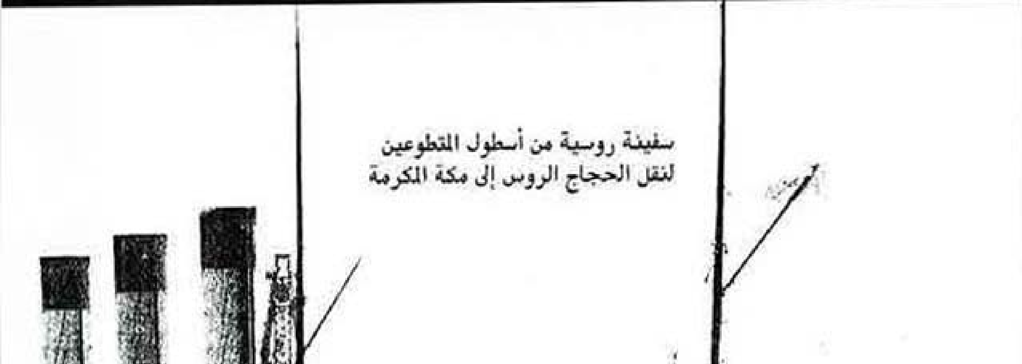
١٥٦ - مكتبة الحرم المكي الشريف ماضيها وحاضرها ص٢. مرآة الحرمين ص٩٤٦ وأم القرى سوانح تاريخية العدد ٢١٢ في ٧-٨ مكة ١٣٤٧هـ ومفتاح الاوائل . الباب الخامس ١ (مخطوط) .

١٥٧ - الأزرقي . أخبار مكة ٢/٣١٢ والفاسي . شفاء الغرام ٢/٢٦٥ .

١٥٨ – عبد الله الماجد، مجلة العرب جـ١٠ ص٨٩٣ و٨٩٤ السنة الثانيـة الرياض ١٣٨٨هـ .
١٥٩ – ابن جبير . الرحلة ص٨٣ بدأت رحلته في ٣٠ شوال ٥٧٨هـ كما ورد في رحلته ص٧ بيروت ١٩٦٤م .
١٦٠ – ابن ظهيرة . الجامع اللطيف ٢١٥ والأسدي . أخبار الكرام ص ٥٤ (مخطوط) . وابن جبير ص٦١ .
١٦١ – مرآه الحرمين ص٩٤٦ .
١٦٢ – عبد الله الماجـد . مجلة العرب . المكتبات والأربطه ٨٩٤/١٠ السنة الثانية ١٣٨٨ هـ .
١٦٣ – القطبي . الأعلام . ص٨٢ والفاسي . شفاء الغرام ٣٣١/١ و٣٤٠ . ودحلان . خلاصة الكلام ص ١١٧ . وعبد الله الماجد . مجلة العرب ٨٩٤/١٠ .

ظروف حج المسلمين ال

من خلال ثلاث وثائق رو



سفينة روسية من أسطول المتطوعين
لنقل الحجاج الروس إلى مكة المكرمة

دوس إلى مكة والمدينة
ية لعام ١٩٠٥-١٩٠٨م

بقلم : د. يافعة يوسف جميل



ملخص البحث

اعتمدنا في بحثنا هذا على ثلاث وثائق تأريخية أخذت من الأرشيف الروسي الحكومي التأريخي في (سانت بطرسبرج) الوثيقة الأولى[1] المؤرخة عام ١٩٠٥م تقع في ٣٨ صفحة وعنوانها : "قوانين وشروط حج المسلمين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة"، وتحتوي على معلومات مهمة ولكن أغلبها ذو طابع سلبي، وهي على شكل تقرير مفصل عن موعد وصول الحجاج المسلمين إلى مكة المكرمة، وعن طريق سيرهم عبر المدينة المنورة وينبع وكذلك طريق عودتهم إلى بلادهم، وعن الأخطار التي يتعرضون لها وهم بطريقهم إلى مكة المكرمة وبالعكس من قتل ونهب وسلب واعتداءات وغيرها من المخاطر . وعن ظلم وجور السلطات العثمانية وكيف كانت تضع مصالحها الشخصية فوق مصالح الحجاج .

وكذلك جاء فيها وصف لبعض مدن الجزيرة العربية ، كوصف لجدة وينبع ومنى والمدينة المنورة . وكذلك وصف لظروف السكن والظروف الصحية . وعن شح الماء وعدم نظافته وغلائه، وعن أماكن السكن التي يعيش فيها الحجاج قبل وصولهم إلى مكة المكرمة، وهي الأخرى غير صحية للغاية، ولا يقدم فيها أي مساعدات طبية للحجاج . وبسبب الظروف الصحية السيئة للغاية فإن الأمراض والوفيات بين الحجاج عند جبل عرفات وخاصة في (منى) أكثر بكثير مما هي عليه في مكة المكرمة . وكذلك عن انتشار بعض الأوبئة مثل وباء الكوليرا ووباء الطاعون التي كانت تنتقل من الهند عن طريق المراكب الشراعية التي كانت تهرب الحجاج إلى مكة المكرمة بدون أي عائق، لأن أصحاب هذه المراكب كانوا يحاولون إخفاء جنسية الركاب ووجهتهم .

وكذلك تتطرق الوثيقة إلى السيد علي زاهر المدرس المشهور في الحجاز والذي كان له تأثير كبير على الشباب المسلمين . وله وجهة نظر حرة ليبرالية، وكان من أنصار روسيا، وكان يحدث طلابه عن زياراته إلى موسكو ويحدثهم عن معالمها التي شاهدها بالتفصيل .

أما الوثيقة الثانية المؤرخة عام ١٩٠٨م فتقع في ست صفحات[٢] وعنوانها : "نقل الحجاج المسلمين" ولقد اختصرنا المادة المذكورة في هذه الوثيقة في ثلاث نقاط هي :

١ – لم تمنع الحكومة الروسية الحج إلى مكة المكرمة وزيارة المدينة المنورة للحجاج المسلمين الروس المقيمين في مختلف مناطق روسيا .

٢ – كانت قد أقيمت منظمات ومنشآت خاصة للحجاج المسلمين من بنايات خان الحجاج، والرقابة الصحية وسائل النقل وغيرها .

٣ – لقد وقفت الحكومة الروسية ضد النصابين أمثال السماسرة اليهود وأمثال عظيمبايوف .

أما الوثيقة الثالثة[٣] المؤرخة عام ١٩٠٨م فتقع في ٢٣ صفحة وعنوانها : "تقرير سعيد غني عظيمبايوف عن حركة الحجاج المسلمين إلى مكة المكرمة عام ١٩٠٨م" . وفيها يبرر عظيمبايوف موقفه ويحاول أن يرد على نقد وآراء الصحافة والصحفيين الذين ينتقدون عمله، ويتهمونه بأنه يضع مصلحته الشخصية فوق كل شيء .

ولكن ورغم كل ما ورد من سلبيات في وثائق هذا البحث فلقد عالجه حكم الملك عبد العزيز آل سعود عندما وحد الجزيرة العربية المترامية الأطراف التي ساد فيها الأمن والسلام وعُمِّرت البلاد في خدمة حجاج بيت الله الحرام، ووفر لهم الأمن والعلاج

والماء وسائر مرافق الحياة الهانئة . فلا غرابة في انضمام الحرمين الشريفين للحكم السعودي سلمياً بل إن أهل الحرمين هم الذين طلبوا من الإمام عبد العزيز تحريرهم وإعمار بلادهم بالأمن والأمان والعمران فنشطت التجارة وعم التعليم واهتم بالصحة عامة وللحجاج بصفة خاصة .

واستمر الحكم السعودي من بعده ولازال مستمراً يعالج السلبيات من الظروف التي تمر بالحجاج مهما كانت من أمنية أو صحية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها .

....

سنحاول في مقالنا هذا أن نبحث كل وثيقة من هذه الوثائق الثلاث وسنؤكد في بحثنا على الوثيقة الأولى وذلك لوجود معلومات هامة بها، ولكن أغلب المعلومات ذات طابع سلبي، كذلك ليتسنى للقارئ العربي أن يحصل على معلومات وافية من مادة الوثائق المذكورة أعلاه .

ولكن ورغم كل ما ورد من سلبيات في وثائق هذا البحث فلقد عالجه الملك عبد العزيز آل سعود خلال سنوات حكمه عندما وحّد الجزيرة العربية المترامية الأطراف التي ساد فيها الأمن وعمرت البلاد في خدمة حجاج بيت الله الحرام الذين يعودون وهم يلهجون بالدعاء للملك العظيم لأنه وفر لهم الأمن والعلاج والماء وسائر مرافق الحياة الهانئة .

والآن لنبدأ بتحليل الوثائق المشار إليها . تبدأ الوثيقة الأولى[4] وهي على شكل تقرير مفصل عن موعد وصول الحجاج المسلمين إلى مكة المكرمة [يؤقت الحجاج المسلمين وصولهم إلى مكة المكرمة في بداية شهر ذي الحجة في عيد الأضحى الذي يصادف ما بين ١٠، ١١، ١٢ من ذي الحجة من السنة الهجرية، هذا مع العلم بأن كل سبع سنوات عندما يصادف اليوم الأول من عيد الأضحى يوم جمعة يكون توافد الحجاج كثيراً للغاية . ويجتاز كافة الحجاج القادمين من الجنوب حجْراً صحياً لمدة عشرة أيام] (١ — ص ١٩٥ ظهر) .

ويقوم الحجاج المتوجهون إلى مكة المكرمة بزيارة المدينة المنورة أيضاً . أما الحجاج الذين يصلون قبل وقت الحج فإنهم يتوجهون إلى المدينة المنورة عبر ينبع ومن هناك يتوجهون إلى مكة المكرمة إما عن طريق البحر، عبر ينبع وجـــدة، أو عن طريق البر . [إن المسافة بين ينبع والمدينة المنورة ٢٣٠ فرستاً[٥] وعادة تعبرها القافلة في خمسة أيام، ولكن غالباً ما يكون هذا الطريق مغلقاً من قِبل البدو وذلك لعدم دفع المعونة الموعودة من قِبَل الحكومة العثمانية] (لقد أغلق البـــدو هـــذا الطريق عام ١٨٩٧م لـــمدة ٨ أشهر) (١ – ص١٩٥ ظهر) .

وما إن يصل الحجاج إلى جدة وحال نزولهم إلى الشاطئ فإن محفظة نقودهم تصبح غير تابعة لهم وذلك لأن الوكلاء المرافقين يستولون عليها، ويحاول كل وكيل استمالة أكبر عدد من الحجاج لسيده . وفي أغلب الأحيان يحاول الوكلاء استمالة الحجاج وهم لازالوا في روسيا .

وهنا وصف موجز من عام ١٩٠٨م :ان عدد السكان في جدة ثلاثون ألف نسمة وفي ينبع خمسة آلاف نسمة ومع هذا يقاسي سكان ينبع وقبل كل شيء من ندرة الماء . لذا يجلب الماء في بعض الأحيان من جدة في علب من الصفيح . إن الماء في جدة غالي جداً لذا يشتري الحجاج الفقراء الماء المستخرج من الآبار التابعة لضواحي جدة والتي تملأ بالماء مرة واحدة في السنة، هذا مع العلم أن الماء معرّض للقذارة والعفونة . "ويمكننا أن نعرف التفاصيل عن مدى العناية بهذه الآبار من كلمات القنصل السابق الدكتور نيكيتينوف الذي شاهد في إحدى الآبار جثة إنسان . إن نظام إمداد جدة بالماء سيئ جداً، لذا لا يوجد حمامات في المدينة كلها وهذا دليل على حياة قاسية لمدينة شرقية . والمدينة نفسها غير نظيفة جدا" . (١ – ص١٩٦)

ينزل الوكلاء الحجاج قبل أن يتوجهوا إلى مكة المكرمة في أماكن تسمى "التكية" . ويسكن حوالي ٣٠ شخصا في غرفة صغيرة واحدة وهناك أربع تكيات تبرع بها الروس للحجاج القادمين من بخارى وتركستان، وهذه التكيات غير نظيفة ولا تكفي لكافة الحجاج .

لذا يبقى الكثيرون منهم خارج هذه التكيات . ويقيم القسم الآخر من الحجاج في بنايات مؤلفة من طابقين . يستخدم الطابق الأول منها كمخزن للبضائع، وأما الطابق

الثاني فمكون من متاهات من الغرف يسكن فيها الحجاج . وتقع هذه البنايات قرب السوق، الإضاءة فيها ضعيفة، والتهوية سيئة للغاية وهذا يجعلها بؤرة للأوبئة .

لا يوجد أي مساعدة طبية للمرضى من الحجاج في هذه الفترة من عام ١٨٩٨م . وكما يقول الدكتور نيكيتنيكوف : رغم وجود مستشفى في جدة، لا يراجعها أحد من هؤلاء المرضى أبداً وذلك لظروفها الصحية السيئة للغاية . ويصف الدكتور سوكولوف الموفد إلى جدة عام ١٨٩٨م المستشفى قائلاً : "إن مستشفى البلدية بشعة المظهر للغاية من الخارج، وتعطي انطباعاً يقبض النفس من الداخل . وهي عبارة عن بناية صغيرة ذات طابق واحد وتتكون من غرفتين، يقسمها ممر صغير بدون أبواب، وفيها قضبان خشبية بدلاً عن النوافذ والجدران والأسرة قذرة جداً . وعلى الأسرة حشايا نتنة فيها كثير من الطفيليات . . ." . (١ – ص١٩٧)

ويذكر في هذه الوثيقة كيف يتصرف الحجاج الروس بأموالهم وقت الحج، إن أغلبية الحجاج عندما يتوجهون إلى مكة المكرمة للحج يأخذون معهم الكمية اللازمة من المال لقضاء حاجاتهم فقط . ومنهم من يحفظ نقوده عند أشخاص يقومون باستلام أموال الحجاج كأمانة ووديعة خلال فترة الحج، ولكن بعض هؤلاء الأشخاص ممن يحاول الاستيلاء على قسم من الأموال المودعة لديهم، ومنهم من يكتفي بالاستيلاء على أموال الحجاج الذين توافيهم المنية خلال الحج . ولقد حاولت القنصلية الروسية منذ تأسيسها عام ١٨٩١م إقناع الحجاج الروس بأن يودعوا أموالهم في القنصلية، ولقد نالت القنصلية مرادها وبدأ الحجاج يودعون أموالهم في القنصلية، ولقد وصل مبلغ الوديعة إلى ١٧,٥٠٠ روبل عام ١٨٩٦ . ولكن وكما جاء في هذه الوثيقة "لقد انخفض مبلغ الوديعة وللأسف في القنصلية الروسية ثانية عام ١٨٩٧م إلى ٤,٧٧١ روبل و ٩ كوبيك، وأن أكثر الودائع لا تزال في أيدي أشخاص غير رسميين" .(١ – ص١٩٧ ظهر) .

يستأجر الحجاج جمالاً للسفر إلى مكة المكرمة من وكلاء متعاونين مع قادة الجمال، ويتقاسم هؤلاء الوكلاء الأرباح بينهم وبين الموظفين وبين قادة الجمال[٦] . ويُضمَن الأمان لقادة الجمال رغم السرقات والقتل الذي يقومون به بطريقهم من جدة إلى مكة المكرمة وخاصة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

وعند وصول الحجاج إلى مكة المكرمة يُسلَّمون بأيدي مرشدين ويقسمهم المرشدون بدورهم إلى فئات حسب بخلهم وكرمهم[٧] .

وجاء في هذا التقرير طقوس الحج وظروفه من الناحية الصحية وهنا وصف لطقس الطواف والسعي، الركنان الأساسيان من أركان الحج . وهنا كذلك وصف موجز للكعبة وقت الحج .

وذكرت في هذا التقرير قصة خروج آدم وحواء من الجنة، وكيف التقيا ولأول مرة عند جبل عرفات . وكذلك على صفحة ١٩٩ ظهر من هذه الوثيقة ذكرت قصة إبراهيم عليه السلام، وذكر المكان الذي وقعت فيه هذه القصة .

وهنا أيضاً وصف لمنى، وكما جاء على لسان أحد الأشخاص الذين شاهدوا منى فوصفها يوم الحادي عشر من ذي الحجة قائلاً : "لم يكن الشارع الرئيسي نظيفاً، ولكن كانت الأرض بين الجبال والبنايات مملوءة بالعظام ذات اللحم الأسود المتفسخ، وذلك لأن الحجاج يعدون لأنفسهم اللحم المجفف من الأجزاء الطرية من اللحم فقط، وأما بقية الأجزاء فيتركونها تتفسخ على الطرقات، وقد ألقي هنا عدد من جثث الخراف المتورمة، وقد غطيت كل الأماكن قرب الجدران بالنفايات والفضلات المنتشرة في كل مكان، والرائحة الكريهة وبخاصة قرب المرافق العامة التي لم تطمر، وآلاف الحيوانات المذبوحة التي بدأت تتفسخ ملقاة على الأرض قرب الحفر" . (١ – ص٢٠١)

وسبب الظروف الصحية السيئة المذكورة أعلاه فإن الأمراض والوفيات بين الحجاج عند جبل عرفات وخاصة في منى أكثر بكثير مما هي عليه في مكة المكرمة .

وفي مساء الثاني عشر من ذي الحجة يرجع جميع الحجاج إلى مكة المكرمة، ويبدأون بتجهيز أنفسهم لطريق العودة، ولكنهم يقومون بطواف الوداع قبل رجوعهم .

وبهذا تنحصر جميع مناسك الحج، ويجتمع مئات الآلاف من المسلمين من كافة أنحاء العالم لتأديتها . (١ – ص ٢٠١ ظهر)

وبعد هذا يأتي شرح لعلاقة الموظفين في مكة بالحجاج . يجب على الحاج أن يدفع كمية كبيرة من المال للحصول على حق الدخول إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة

وضواحيها . وتترأس بعض الأسر المشهورة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة بالوراثة وإلى الأبد، وتعبث هذه بمكة المكرمة وبدون عقاب بأعمالهم المشكوك بأمرها .

وشهادة من الدكتور والفات : أن موظفي مكة كانوا يتقاسمون الأرباح الكثيرة مع الموظفين العثمانيين المحليين، ومع أتباع السلطان في القسطنطينية، وكذلك حتى مع بعض رؤساء المال الأوروبيين الأغنياء ومع قناصل أوروبيين أيضاً .

وعندما ينتهي أهم جزء من مناسك الحج، أي بعد عودة الحجاج من منى إلى مكة المكرمة، يعتبر القسم الأكبر من الحجاج بأنه من واجبهم زيارة الأماكن المقدسة في المدينة المنورة . وتدوم الرحلة عن طريق البر إلى المدينة المنورة ذهاباً وإياباً ٢٥ يوماً . والرحلة متعبة وخطيرة للغاية . لذا يفضل الكثيرون من الحجاج الرجوع إلى جدة ومنها عن طريق البحر إلى ينبع ومنها بطريق القوافل إلى المدينة المنورة .

ولكن أهل مكة يحاولون بشتى الطرق عرقلة مثل هذه الرحلات ويرغمون الحجاج على السفر عن طريق البر، وذلك لأن سفر الحجاج عن طريق البر يجلب لهم أرباحاً طائلة . وفي نفس الوقت منعوا بقية العرب من نقل الحجاج إلى المدينة المنورة عن طريق البر . مع العلم أن القافلة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة تتألف عادة من ١٥ إلى عشرين ألف جمل، ومن هـذا نفهم أي أربـاح تجلبها هـذه الرحلة للقائمين عليها . (١ — ص٢٠٣ ظهر)

وعندما أصر الحجاج عام ١٨٩٦م بالسفر إلى المدينة المنورة عن طريق البحر، ومنها توجهوا إلى جدة بقافلة خاصة، فلقد سلبهم ونهبهم البدو . (١ — ص٢٠٣ ظهر)

وكثيراً ما تتعرض القوافل وهي بطريقها من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة إلى السلب والنهب والقتل من قِبل البدو وحتى من قِبل قادة الجمال . وكما جاء بتقرير القنصل في جدة السيد براندت : "لقد سُرقت ونهبت القافلة عام ١٨٩٥ وهي بطريقها من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة من قِبل قادة الجمال وبالرغم من أنه كان قد قتل مئات الناس، فلقد أكد قائممقام جدة على القنصل تخلصاً من التحقيق بأن القافلة أصيبت بكوليرا وهي التي كانت السبب في وفاة هؤلاء المئات من الناس" . (١ — ص٢٠٤)

يتكرر السلب والنهب كل عام وعلى ما يبدو أن كل هذا يحدث بموافقة السلطات العثمانية الصامتة التي لا ترسل حرساً كافياً مع القافلة وتدع الحجاج تحت رحمة البدو كلياً . وعن لسان ملمين بالأمر حتى السلطة المحلية تشترك بأخذ حصتها من الأشياء المسروقة .

نادراً ما تصل المعلومات عن حوادث سرقات الحجاج إلى أسماع القنصلية الروسية، وذلك لأن الحجاج يخافون السلطات العثمانية، وكذلك لأن القنصلية لا تستطيع أن تساعدهم بشيء دون علم السلطة .

وما عدا سلب ونهب الحجاج عبر الصحراء ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة فهناك الأمراض كالكوليرا وغيرها من الأمراض التي تودي بحياتهم . ولقد وصف أحدهم الطريق قائلاً : "كانت درجة الحرارة مرتفعة للغاية، وكان الحجاج يصابون باضطراب في المعدة ويقضون نحبهم بسرعة . ولا يهتم أحد أبداً بالمرض، وكل واحد يهتم بنفسه فقط . وكانت هناك حوادث وهي أن الحجاج أنفسهم كانوا يرمون برفاقهم الضعفاء على قارعة الطريق ليموتوا موتاً بطيئاً" . (١ — ص٢٠٥)

وقال شاهد عيان آخر بأنه : قد بلغ عدد هؤلاء المرميين على قارعة الطريق في أحد الأيام ٧٠٠ مريض نهاراً فقط، ولكنه لم يستطع أن يميز كم مريضاً ألقي على قارعة الطريق ليلاً" . (١ — ص٢٠٥)

يلقى الكثير من الحجاج حتفهم في الحجاز قبل وصولهم إلى المدينة المنورة وذلك بسبب عدم توفر وسائل الراحة الضرورية من مسكن وماء، ومساعدات طبية والوضع الصحي السيئ للغاية مما يؤدي إلى وفاة ٢٠٪ من عدد الحجاج، وفي السنوات المشؤومة يصل عدد الوفيات إلى ٥٠٪ من عدد الحجاج .

وهنا شرح للأمراض الوبائية التي تنتشر بين الحجاج خاصة من الحجاج الهنود . إن وباء الكوليرا والطاعون معروفة في جزيرة العرب منذ القدم . وجاء على لسان أحد الملمين بالأمر بأن الأوبئة تبدأ أحياناً من عرفات بصورة خفيفة، ولكن تبدأ في منى في

أغلب الأحيان وهنا تصل إلى ذروتها دائماً، وينقل المرض إلى مِنى في أغلب الأوقات الحجاج من الهند .

وكان الوباء يصل ذروته في سنوات الحج الأكبر، وعندما كان الحج يصادف فصل الحر" . وهناك قناعة بأن الكوليرا تنتشر عادة في السنوات عندما تتغطى الشعاب المحاطة بالجبال في مِنى بالضباب، وكلما كان الضباب أكثر كثافة كان الوباء أكثر انتشاراً" . (١ – ص٢٠٦)

وهنا يأتي شرح مفصل عن أكبر وأهول الأوبئة التي انتشرت في تلك الأعوام ومنها وباء الكوليرا الذي انتقل من الهند عام ١٨٣١م وذهب بحياة ثلاثة أرباع الحجاج وبعدها اجتاح الوباء جميع أنحاء أوروبا، وبعدها انتشر الوباء عام ١٨٣٤ وعام ١٨٣٧ وعام ١٨٤٠ وبعدها هاجت الكوليرا خمسة أعوام متتالية من عام ١٨٤٦ إلى عام ١٨٥٠م .

وامتاز وباء ١٨٦٥ بشدته، وكان الوباء قد انتقل من الهند واستمر عامين .

وامتاز وباء عام ١٨٨٣ بشدته أيضاً، وذهب بحياة ضحايا كثيرين. وانتشر وباء الكوليرا بشدة عام ١٨٩٣م وكذلك ذهب بحياة ضحايا لا تحصى . وكما جاء على لسان الشهود : "إن هذا الوباء يشبه وباء عام ١٨٦٥، الذي بدأ عند جبل عرفات بصورة طفيفة ثم انتشر في مِنى في مساء اليوم الأول من وصول الحجاج إليها، وانتشر بسرعة في مكة المكرمة وجدة ولم يخرج عن نطاق الحجاز بفضل الحجر الصحي" . (١ – ص٢٠٧)

وكذلك اشتهر عام ١٨٩٥ بانتشار وباء الكوليرا واشتد المرض عند سفر الحجاج من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

أما عام ١٨٩٧ فلقد اشتهر بانتشار وباء الطاعون بين الحجاج وقد بدأ انتشاره في شهر مايو وانتهى في بداية يوليو . ومن الأرجح بأن هذا الوباء انتقل عن طريق الحجاج من اليمن وحضرموت وبما أن شواطئ جزيرة العرب على اتصال دائم بموانئ الهند، كاراجي وبومباي، المصابة بالطاعون، وكان يتم الاتصال بها عن طريق المراكب الشراعية التي يصعب مراقبتها صحياً . كان اليمنيون يشترون البضائع المختلفة من الهند وبعدها

يحاولون تسويقها، لذا كانوا يتوجهون من مسقط إلى الحجاز لبيعها، وكانوا يأخذون الحجاج أيضاً على مراكبهم الشراعية .

وكان في البحر الأحمر سفينة كانت تقبض على المراكب الشراعية التي كانت تقوم بتهريب الحجاج، ولكن منذ عام ١٨٩٦م لم تعد هذه السفينة موجودة في البحر الأحمر، لذا كانت حركة تهريب الحجاج تتم بدون عائق وكان أصحاب هذه المراكب يحاولون إخفاء جنسية الركاب ووجهتهم .

وبعدها انتشر وباء الطاعون في عام ١٨٩٨م وفي عام ١٨٩٩ . وانتقل الوباء عام ١٨٩٩ من الهند عن طريق وصول حجاج من الهند إلى الحجاز عن طريق التهريب وأول من أصيب بالطاعون في هذا العام كانت امرأة هندية .

وما إن وصلت الأخبار عن أول الوفيات بسبب الطاعون في جدة حتى أمر المجلس الصحي العالمي في القسطنطينية بعزل جدة ومنع الحجاج من زيارتها ووضع نطاق صحي حول جدة مما أدى إلى سخط وتذمر الحجاج وسكان جدة من الإجراءات التي اتخذها المجلس الصحي وهذا بدوره أدى بفتنة بين السكان في الثامن عشر من شباط واخترقوا النطاق الصحي حول جدة بالقوة وهدموا الكثير من الدكاكين وسلبوا ونهبوا جميع الحجاج الموجودين في أجنحة المستشفى وجراء هذا ولتهدئة الاضطرابات بين سكان جدة ولتجنب تجمع الحجاج في المدينة رفع المجلس النطاق الصحي من حول جدة في ٢٣ فبراير ١٨٨٩م بشرط أن ينفذوا التعليمات الصحية ويتمسكوا بها في جدة وكذلك في مكة المكرمة . واعتبر الحج في العام المشار إليه خطراً بسبب وباء الطاعون . وكذلك كان على العائدين من مكة المكرمة والمدينة المنورة المرور بالحجر الصحي لمدة عشرة أيام .

وبعد هذه المعلومات عن الأمراض والأوبئة يأتي وصف موجز للمدينة المنورة .

عدد سكان المدينة المنورة ٤٠،٠٠٠ نسمة، ويقيم الحجاج الروس في ٥ تكيات مخصصة لهم أو يقيمون في شقق خاصة أو في المدارس . يجلب الماء من آبار تقع على مسافة ٥٠ فرستاً خارج المدينة المنورة، ويوجد للمرضى مستشفى عثماني فيه ٣٠ سريراً

وطبيب واحد، والمستشفى على أملاك الأوقاف . وكذلك يعمل المستشفى كمستوصف لعلاج المرضى ويقدم لهم الأدوية مجاناً .

تعيش في المدينة المنورة ٣١ عائلة من التتار الروس الذين هاجروا إلى هذه المدينة في فترات مختلفة ولأسباب مختلفة أيضاً . بنى هؤلاء التتار في ضاحية الشيخ[٨] مسجداً صغيراً[٩] يترأسه أحد مواطني محافظة استراخان عبد الستار والذي هاجر إلى المدينة المنورة قبل ٤٠ عاماً . وتقع كافة نفقات هذه الجالية على عاتق الحجاج التتار الروس .

وعبد الستار المذكور أعلاه وقبل ٣٠ عاماً بدأ يجمع رأسمالاً في روسيا لإقامة مدرسة ومسجد في المدينة المنورة . وكان عبد الستار يسافر في البداية بنفسه إلى روسيا لجمع التبرعات ولكن بعد ذلك وعندما منع عليه الدخول إلى روسيا بدأ يرسل الرسائل مع مساعديه المقربين إليه وجمع بهذه الطريقة ٥٠,٠٠٠ روبل وبنى بهذا المبلغ مدرسة فيها ٤٠ صومعة صغيرة ومسجداً صغيراً و٦ بيوت ليعيش بها جامعو التبرعات .

ولهدف نشر سيطرته وزيادة عدد أنصاره حاول عبد الستار ومقربوه وبكل الطرق إقناع التتار بالهجرة إلى دولة إسلامية أي إلى دولة تخضع لحكم إسلامي لأن هذا من أهم واجبات المؤمن . ولكن لم يزدد عدد التتار وذلك بسبب الجو الصعب، وكذلك بسبب نسبة عدد الوفيات الكبيرة بينهم، ولأن الرجال التتار الذين يفقدون زوجاتهم يتوجهون إلى روسيا ليتزوجوا هناك ثانية وليجلبوا كذلك معهم نساءً لأولادهم وأخوتهم وأقربائهم من الرجال وذلك لأنهم لايحبون الاقتران بالنساء العربيات وحسب قولهم أن النساء العربيات صارمات ولا يطعن أزواجهن .

يوجد في المدينة المنورة ١٧ مدرسة وهي ملك الأوقاف العثمانية وفيها ما يقارب ٢٥٠ طالباً . وتوجد مثل هذه المدارس في مكة المكرمة أيضاً . ويصرفون من المبلغ السنوي الذي تتسلمه المدارس من الأوقاف رواتب للمعلمين والموظفين الذين يعملون في هذه المدارس وكذلك يصرفون نفقات المعيشة للطلبة .

وفي الحاشية على صفحة (٢١١ ظهر – ٢١٢) من الوثيقة رقم (١) وصف للمدارس في المدينة المنورة .

إن مدرسة المحمودية هي أغنى مدرسة في المدينة المنورة، يتسلم الطالب فيها ليرة تركية واحدة في الشهر (أي ما يقارب ٣ روبلات و٥٠ كوبيك) وأما الذين يعيشون في المدرسة التازانية فإن نفقات معيشتهم على حسابهم الخاص .

يدرس في مدارس المدينة المنورة طلاب من جميع القوميات (ماعدا السكان الأصليين) وطلاب من جميع الأعمار حسب عدد الأماكن المخصصة للسكن . عدد سنوات الدراسة غير محدد (يعيش بعض الطلبة في هذه المدارس إلى ٢٠ سنة) . ويفصل الطالب من المدرسة إذا قام بعمل مخالف وغير لائق ونادراً ما يحدث ذلك، وكذلك يفصل الطالب إذا تزوج .

اشتهر الأساتذة بالمدينة المنورة بشرح القرآن وخاصة الأحاديث النبوية . ويقصد الكثيرون المدينة المنورة لمدة سنة أو سنتين ليدرسوا هذه العلوم على أيدي هؤلاء الأساتذة .

كان عدد الطلبة من روسيا عام ١٨٩٨م في جميع مدارس المدينة المنورة ٤٢ طالباً . القسم الأكبر من الطلبة يدرسون في المدرسة التازانية وذلك لوجود غرف خالية دائماً . لقد ازداد عدد الطلبة في مدارس المدينة المنورة في السنوات الأخيرة ازدياداً كبيراً وذلك بسبب انتقال عدد كبير من الطلبة من مدارس القاهرة والقسطنطينية إلى مدارس المدينة المنورة[١٠] وذلك لرغبتهم للاستماع لمحاضرات الأساتذة في المدينة المنورة ولكن الأهم من ذلك هو تلك الحياة الرغيدة التي يعيشها الطالب بفضل التبرعات التي تجمع من الحجاج المواطنين، وكذلك استلام بدل مربح للقيام بالحج نيابة عن شخص آخر .

وكما جاء على لسان أحد الوكلاء الذين زاروا المدينة المنورة عام ١٨٩٨م أن المسلمين الشباب الذين يدرسون في المدينة المنورة يختلفون اختلافاً شديداً عن إخوانهم المسلمين الذين يدرسون في مدارس بخارى فلا تلاحظ عندهم ذلك التعصب الأعمى والاستخفاف بكل شيء لا يدخل في نطاق الشريعة وإلى كل من لا يطبق قوانين الشريعة بصرامة . كان طلبة مدارس المدينة المنورة واسعي الفكر ولهم وجهات نظر صحيحة ويهتمون بكل شيء .

وإن للسيد علي زاهر المدرس المشهور في الحجاز تأثير كبير على الشباب . إنه شخص ذكي جداً، ولقد شاهد الكثير في حياته وله وجهة نظر حرة ليبرالية وهذا ما جعله مشهوراً بين العلماء . وإن المدرس المحترم هذا هو من أنصار روسيا وكان دائماً يحدث طلابه عن زياراته إلى موسكو ويحدثهم عن كافة معالمها التي شاهدها بالتفصيل، وكثيراً ما يمدح أنظمتها قائلاً : "الإيمان حقنا، هذا مما لاشك فيه" . (١ — ص٢١٢ ظهر)

وبعد هذا يأتي وصف لطريق عودة الحجاج .

يبدأ الحجاج عند رجوعهم إلى جدة وينبع بجمع حاجياتهم للرجوع إلى بلدهم ومعها تبدأ بلاياهم . يفلس الحجاج ذوو الدخل المحدود عند وقت العودة ولا يبقى عندهم المبلغ الكافي للرجوع إلى وطنهم لذا يحاولون محاصرة القنصلية الروسية ومراكز الشرطة في جدة ويرجونهم أن يرجعوهم إلى وطنهم مجاناً . ونادراً ما يرجع الأغنياء أيضاً من مكة المكرمة بدون خسائر . ولقد قال الدكتور والفات بأن في مكة المكرمة توفى في السنوات الأخيرة رجل صيني وزوجته من الجوع بالرغم من أنهما كانا يحملان معهما عشرات الآلاف من الليرات العثمانية(أي ما يقارب مئات الآلاف من الروبلات) . وفي تلك السنة نفسها خسر أحد الحجاج من مالي أمواله وكان قد وصل إلى مكة المكرمة ومعه كمية كبيرة من المال ولقد استقبل في مكة بطلقات مدفعية، وكانت عربة واقفة طوال فترة الحج قرب باب هذا الحاج يرافقه ٢٠ شخصاً من الحرس . وعند انتهاء الحج أرسل الحاج المالي إلى وطنه بمبلغ جمع بالتزام كتابي .

تتجمع في جدة وينبع سفن من كل الدول تقريباً لحمل الحجاج إلى وطنهم . وأن كل السفن التي كانت تستعمل لنقل الحجاج سيئة للغاية وغير صالحة لنقل أي شيء وغير صالحة ولا حتى للاستعمال إلا ما ندر . وأسوأ السفن هي السفن العثمانية . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الحجاج يجدون أنفسهم على هذه السفن بالذات وذلك لأن سلطة الشواطئ تقوم بالضغط على الحجاج وبكل جسارة لفائدة السفن العثمانية وتصل جسارتهم إلى حد إبعاد السفن التابعة إلى شركات أخرى عن المدينة وبدون تكلف وكان

من بين هذه السفن بعض السفن التابعة لروسيا . وطلب قائممقام جدة وبكل جسارة من القنصل الروسي إبعاد هذه السفن بدون ذنب .

وتجبر الشرطة بالقوة مكاتب شركات السفن التي تعمل إلى ساعة متأخرة من الليل أن تغلق أبوابها عند الغروب في الأوقات العصيبة، هذا مع العلم أن مكاتب الشركات العثمانية تبقى أبوابها مفتوحة . وكانت تعلق دائماً إعلانات كاذبة عمداً ومضمونها بأن السفن العثمانية ستغادر جدة أولاً . وكان يحدث كل هذا رغم أوامر السلطان المكتوبة بثلاث لغات ومحتواها أن الحجاج أحرار باختيار السفن أو باختيار القوافل وغيرها من وسائل النقل .

ويحاول قباطنة السفن عديمو الذمة أن يجمعوا أكبر عدد من الحجاج ولا يعيرون أهمية لعدد الركاب المقرر لكل سفينة . ونتيجة لذلك تمتلئ السفينة إلى درجة لا يستطيع الركاب حتى الجلوس من كثرة الازدحام، وتبيع بعض السفن تذاكر لأماكن وحتى على قوارب الإنقاذ المعلقة . وبما أن قبطان السفينة لا يملك الحق بالتلاعب بثمن التذاكر، لذا فإن بعض أصحاب السفن يقومون بجمع ثمن التذاكر على حده وثمن المكان على حده . ويقوم الكثيرون من أصحاب السفن برفع أسعار التذاكر في بداية موسم رحيل الحجاج . وفي بعض الأحيان تصل دناءة بعض أصحاب السفن بحيث يبيعون تذاكر أكثر من عدد الركاب الذين تستطيع أن تتحمله سفينتهم، لذا تغادر السفينة بهدوء بغير أن تأخذ هؤلاء الركاب على متنها ويتركونهم على الشاطئ ليتوجهوا بشكواهم إلى من يريدون .

وخلافاً للقرارات الصحية التي تفرض على السفن التي تنقل الحجاج أن يكون على متنها سقائف تحفظ الحجاج من الشمس فإن الكثير من السفن لا تملك مثل هذه السقائف، ويتعرض الحجاج طوال الوقت للشمس الحارقة التي تجعل من البحر الأحمر جحيماً حقيقياً . هذا مع العلم أن الماء على متن السفينة رديء جداً ويباع بأسعار باهظة .

ورغم أن القواعد الصحية التي أقرها المجلس الصحي في القسطنطينية تؤكد بأنه يجب على كل سفينة تقوم بنقل الحجاج أن يكون على متنها طبيب وصيدلية ولكن

النتائج العملية لهذا القرار نعرفها من كلمات الدكتور فيراري (Ferrari)، المفتش الصحي في السويس : "مراراً ما استلم قرارات من قباطنة وأطباء السفن بأن الوضع الصحي للحجاج جيد جداً، ويتبين عند التفتيش الصحي أن المرضى ينازعون الموت على متن السفينة وهم متمددون في قاذوراتهم وبدون أي مساعدات طبية" . (١ - ص٢١٣ ظهر)

وبهذه الظروف العصيبة يعود الحجاج إلى بلادهم من الحج .

وعادة ما يحمل كل حاج معه الهدايا التي تتكون من وزن محسوس من التمر المحلي والماء المقدس من بئر زمزم وينقل الماء في علب خاصة من الصفيح، وكذلك يأخذ الحجاج معهم كهدايا السُبح المحلية والسجادات للصلاة، والخواتم الفضية وغيرها .

ويأخذ كل حاج معه ملابس الإحرام التي كان يكتسي بها وقت الحج وكذلك قطع من الأقمشة المبللة بماء بئر زمزم للكفن لهم ولمعارفهم . توضع كل هذه الأشياء في صناديق وتسلم بيد سمسار ليوصلها إلى القسطنطينية .

وخلاصة ما جاء في هذه الوثيقة بأن ظروف الحج في تلك السنوات إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت ظروفاً صعبة جداً وليست لصالح الحاج وتتلخص بسلب ونهب الحجاج والأمراض والأوبئة والوفيات التي كان يتعرض لها الحجاج وهم بطريقهم إلى مكة المكرمة أو بطريق العودة .

° ° ° ° ° ° ° ° ° ° °

والآن ننتقل إلى الوثيقة الثانية والتي هي على شكل تقرير المكتب الرئيسي لنقل الحجاج المسلمين إلى جدة . وهذا التقرير معنون إلى المكتب الرئيسي للجمعية الروسية للملاحة والتجارة . ويذكر فيه تأسيس "مكتب لنقل الحجاج المسلمين" للمرة الثانية وفق أسس قوانين نقل الحجاج وحسب تعليمات قسم الملاحة التجارية . "رغم النجاح الشامل الذي حققته هذه الجمعية تبين أنه من الضروري :

١ - تأمين المدينة من نقل الأوبئة والأمراض المعدية إليها مثل الكوليرا والطاعون وغيرهما .

٢ – اتخاذ الإجراءات القانونية والتي تبين أنها غير كافية لمنع تدخل السماسرة والسفن الأجنبية التي تحول دون هدف الجمعية الرئيسي، وهو بيع التذاكر للحجاج إلى جدة" . (٢ – ص١٤٩)

ولكن رغم اهتمام المكتب الرئيسي بجمع الحجاج المسلمين في أوديسا والعناية بهم صحياً وكذلك تسجيلهم فإن جماعة من السماسرة اليهود يقومون بطريق الحيلة والمراوغة بإقناع الحجاج بقطع تذاكر إلى جدة فقط رغم حرص المكتب الرئيسي على بيع التذاكر إلى جدة وبالعكس . وما عدا هذا فلقد حاول هؤلاء السماسرة وفي الخفاء صرف الحجاج عن أوديسا ويوجهونهم عبر نهر الرين ورومانيا إلى القسطنطينية وهناك يكون قد انتهى موعد بيع تذاكر المكتب الرئيسي للملاحة والتجارة وذلك حتى يتوجه الحجاج إلى جدة فقط .

ولقد كان الكثير من أعضاء الجمعية التعاونية في المكتب الرئيسي يقومون بمساعدة هؤلاء السماسرة بالوضع المذكور أعلاه وكانوا يأخذون البقشيش من الحجاج ولكن كان هؤلاء الأعضاء يطردون مباشرة من الجمعية ويدفعون غرامة وفي هذه الحالة كان هؤلاء يفرون إلى أصحاب سفن عثمانية جاءت لتأخذ مجموعة من الحجاج ولكن وبسبب انتهاء موسم الحج كانت تنقل هذه السفن مجموعة صغيرة إلى بضعة مئات الأشخاص . إن الشيء المهم هنا هو الاستيلاء على الحجاج الذين استعدوا للسفر عن طريق وكلاء المكتب الرئيسي للملاحة .

لقد أقام الجنرال محافظ الولاية المؤقت والمفتش الصحي للمحطات البحرية بناية عظيمة مجانية في مينا أوديسا لنقل الحجاج المسلمين إلى جدة . ولقد خصص المكتب الرئيسي الروسي للملاحة والتجارة قرضاً بمقدار ٥٠,٠٠٠ روبل وعمولة لسعيد غني عظيمبايوف حتى يقوم بخدمة السفن التي تنقل الحجاج وكذلك لإقامة بنايات تقوم بأعمال نقل الحجاج ولكن عظيمبايوف استخدم القرض والبنايات ووسائل النقل لمصلحته الشخصية. لذا طلب المكتب الرئيسي إنشاء جميع البنايات وبأسرع وقت كمحطات للحجاج وطلب استعمال الأسطول الطوعي وخصص لهذا الغرض قرضاً بمقدار ٥٠,٠٠٠ روبل .

ولقد اختصرنا المادة المذكورة في هذه الوثيقة بثلاث نقاط هي :

١ — لم تمنع الحكومة الروسية الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة للحجاج المسلمين الروس المقيمين في مختلف مناطق روسيا .

٢ — كانت قد أقيمت منظمات ومنشآت خاصة للحجاج المسلمين من بنايات، خان الحجاج، والرقابة الصحية ووسائل النقل وغيرها .

٣ — لقد وقفت الحكومة الروسية ضد النصابين أمثال السماسرة اليهود وأمثال عظيمبايوف .

....

وأما الوثيقة الثالثة والتي تقع في ٢٣ صفحة فهي عبارة عن تقرير سعيد عظيمبايوف ولقد توقفنا في بحثنا هذا عند بعض المعلومات التي جاءت فيه وهي رده على نقد وآراء الصحافة وعلى الصفحة ٢٣ من هذه الوثيقة جاء على لسانه بأنه في بداية عمله لم يكن هناك أي اهتمام به ولا بعمله لا من قِبل الصحف الروسية ولا من قِبل الصحف الإسلامية . ولكن ظهرت بعد ذلك مقالات انتقادية تنتقد فيها عمله وجاء فيها عن أسعار التذاكر الغالية التي كانت تباع للحجاج المسلمين وكذلك عن أخذ رسوم وضرائب إضافية منهم . وأضاف قائلاً : إن هذا النقد كان يمس محطة واحدة فقط من محطات الحجاج المسلمين وهي محطة أوديسا وخان الحجاج، هذا مع العلم بأن الحجاج كانوا يسرقون وينهبون ويخدعون طوال طريقهم الصعب إلى مكة المكرمة، في شبابيك قطع التذاكر، ومن قِبل المرافقين، ومن أصحاب السفن وغيرها . ولقد استمر عظيمبايوف في كلامه قائلاً : بأنه لا يريد أن يبرر موقفه وخاصة بعد أن بدأ باستلام رسائل شكر كثيرة من المسلمين والذين يعبرون فيها عن أهمية عمل عظيمبايوف، ولقد استلم هذه الرسائل وزير الداخلية ووزير المواصلات .

في سبتمبر عام ١٩٠٨م حدثت اضطرابات بين الحجاج المسلمين في خان الحجاج وطالبوا بإرسال سفينة إلى جدة وتخفيض أسعار تذاكر السفر وغيرها . وعندما هدأت الاضطرابات تبين بأنه قد انتشرت إشاعات بين الحجاج بوصول سفينة إلى أوديسا لنقل الحجاج بأسعار مخفضة، ولكن عظيمبايوف يعيق سفرهم على هذه السفينة، وذلك لأن هذا يتضارب مع مصلحته الشخصية، ولكن وبعد تحريات طويلة تبين بأن بعض المترجمين الذين رفضهم عظيمبايوف بسبب عملهم المتهاون دخلوا متنكرين بهيئة الحجاج إلى خان الحجاج وبدأوا بنشر هذه الإشاعات مما أدى إلى هذه الاضطرابات .

وكذلك حدثت اضطرابات ثانية على متن السفينة "كييف" بسبب التفريط في اتخاذ إجراءات صحية إضافية . ولكن أقيمت مفاوضات مع الحجاج ورئاسة السفينة وهدأت الاضطرابات . واستطرد قائلاً : ولقد توصلت إلى نتيجة بأن الحج الأخير مرّ بسلام للحجاج وللحكومة الروسية، ولقد ساعدت وأعطيت فرصة لحوالي ٧,٠٠٠ حاج أن يقوموا بالحج بدون عقبات وصعوبات، ولقد كانت جميع وسائل الراحة متوفرة لهم، ومع هذا لم أصرف ولا حتى كوبيكاً واحداً من خزينة الدولة . ولقد ساعدني في عملي بعض موظفي الدولة .

وينشر الأعداء الإشاعات بأنني أصبحت غنياً وربحت الملايين بسبب الحج والحجاج المسلمين، ولكني في الواقع تحملت الخسائر فقط لأنني قدمت أموالي وصرفت طاقتي بهذا العمل . وأملي وبعونه تعالى أن أقوم بمهمتي هذه لصالح وخدمة الحكومة الروسية ولصالح المسلمين .

إن عظيمبايوف بتقريره هذا يحاول أن يبرر موقفه وينفي عن نفسه التهمة التي جاءت في الوثيقة رقم ٢ .

وأخيراً وبعد أن حرر حكم الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله جزيرة العرب، وطرد الأجنبي منها، ووحدها، ساد الأمن فيها وعُمِّرت البلاد في خدمة حجاج بيت الله الحرام .

واستمر الحكم السعودي ولازال يعالج السلبيات من الظروف التي تمر بالحجاج سواء في الأمن أو الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع أو العمران . إذن فلا غرابة من انضمام الحرمين الشريفين للحكم السعودي الذي وحَّد الجزيرة العربية ، واهتم بعمران الحرمين الشريفين وساد الأمن فنشطت التجارة والزراعة وعمَّ التعليم واهتمت الدولة بالصحة وخاصة الحجاج .

د. يافعة يوسف جميل

جامعة سانت بطرسبرج

الهوامش والمصادر

١ – الوثيقة الأولى : قوانين وشروط حج المسلمين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ١٩٠٥م الإضبارة ١٢٠٢، القائمة ٨، الملف ٨٢١، صفحة ١٩٥ – ٢١٤ .

٢ – الوثيقة الثانية : نقل الحجاج المسلمين ١٩٠٨م الإضبارة ١٨٤٩، القائمة ١، الملف ١٠٧، صفحة ١٤٩ – ١٥٢ .

٣ – الوثيقة الثالثة : تقرير سعيد غني سعيد عظيمبايوف عن حركة الحجاج المسلمين إلى مكة المكرمة عام ١٩٠٨م، الإضبارة ١٥٥، القائمة ٣، الملف ٩٨، صفحة ١ – ٢٣ .

٤ – في هذا المصدر يقدم الدكتور علي عبد الرحمن أباحسين مقارنة بين الوثائق الأجنبية ومن بينها بعض الوثائق الروسية وبين بعض الوثائق العربية المتعلقة بالموضوع المطروح بالبحث وفيه صورة رسالة من الملك عبد العزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين مؤرخة في ٢٨ ربيع أول ١٣٤٣هـ الموافق للسابع والعشرين من أكتوبر ١٩٢٤م وجاء فيها بعد الديباجة والبشارة بدخول مكة المكرمة بناءً على طلب أهلها فدخلها جيش ابن سعود محرمين ولم يسفك دم ولم يؤخذ مال والناس يبيعون ويشترون في أسواقهم وختم الملك رسالته بقوله : وقصدنا تطهير بيت الله الحرام وأن يكون حراً لكل قاصد – وراحة وأمان الحجاج وساكني مكة المكرمة ومجاوري الحرم الشريف – أنظر الوثيقة، العدد ٣٧، ص٢٤ . يناير ٢٠٠٠م .

٥ – فرستاً = ١٠٦٠ متراً .

٦ – سعر الجمل من جدة إلى مكة المكرمة يعادل ٥ مجيدي (حوالي ٨ روبلات و٦ كوبيكات) ويستلم منها الموظفون ٢ مجيدي، وأما الثلاثة مجيدي الباقية فتقسّم ما بين صاحب الجمل والمرشد وقائد الجمال، هذا مع العلم أن صاحب الجمل يتسلم أقل الجميع". (١ – ص١٩٧ ظهر) .

٧ – للحجاج الروس في مكة المكرمة ثلاثة مرشدين ، أحدهم للحجاج من القفقاز، والآخر للحجاج من القرم، والمرشد الثالث للحجاج من الأماكن الأخرى". (١ – ١٩٨)

٨ – ملاحظة المترجم : ضاحية الشيخ – جاءت في النص الأصلي ضاحية الراهب ولكننا ترجمناها ضاحية الشيخ .

٩ – مسجد : جاءت في النص الأصلي كنيسة صغيرة ولكننا ترجمناها مسجد .

١٠ – لقد بقي في نهاية عام ١٨٩٧م سبعة طلاب روس في القاهرة وخمسة عشر طالباً روسياً في القسطنطينية فقط .

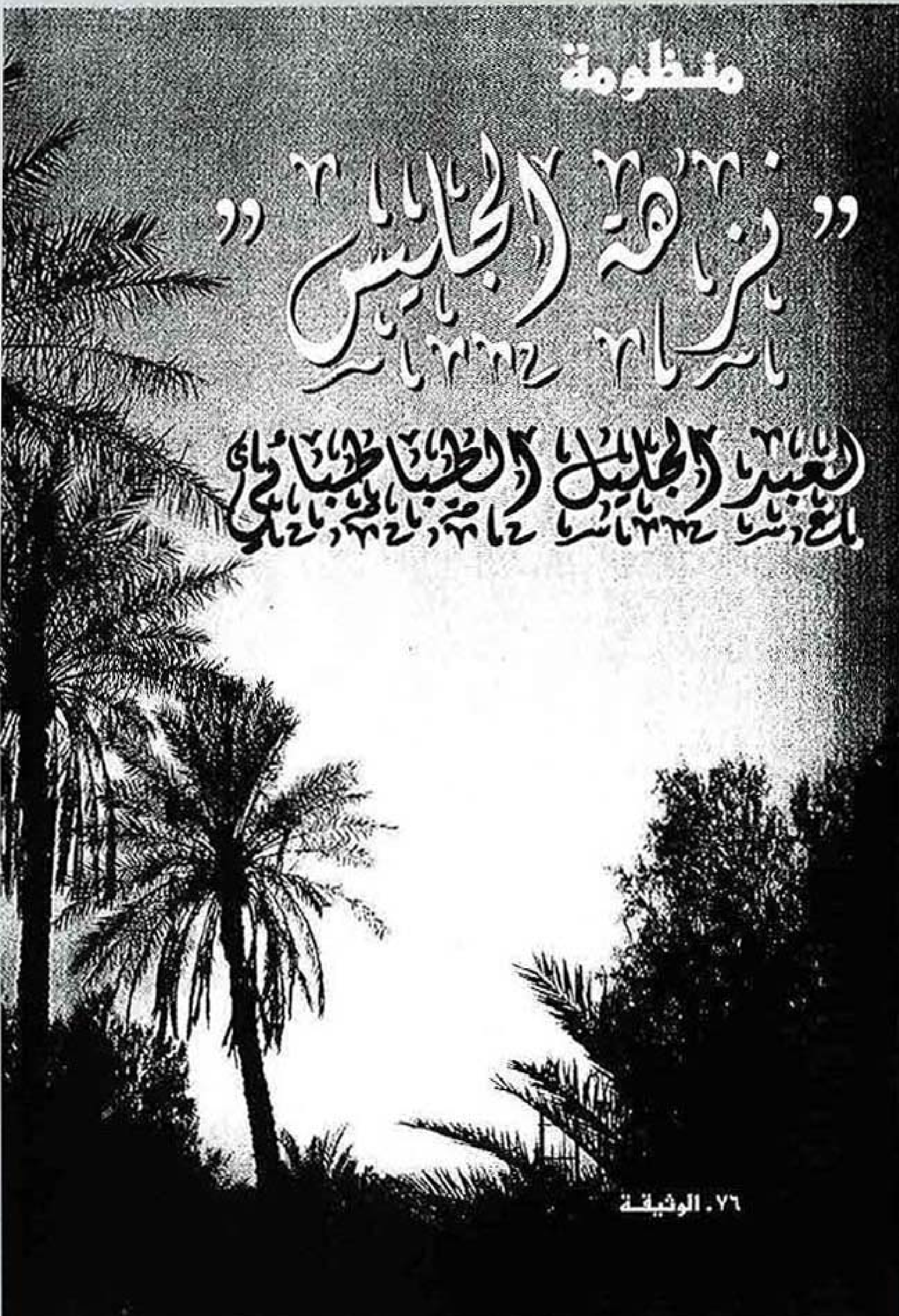
الدوريات

مجلة الوثيقة : التحقيق في تاريخ أو توقيت حروب الملك عبد العزيز لتوحيد الجزيرة العربية بمقارنة المصادر المطبوعة بالوثائق المخطوطة ، د. علي عبد الرحمن أباحسين، عام ٢٠٠٠م، العدد ٣٧، ص ١٤ – ٥٥ .

منظومة

"نزهة الجليس"

لعبد الجليل الطباطبائي



قراءة وثائقية فنية

بقلم : الدكتور عبد الجليل منصور العريض



يشكّل أدب الرحلة عنصراً بارزاً، وآلية فاعلة في أساسيات المنظومة المعرفية في ثقافتنا العربية الإسلامية، لها خصائصها وسماتها وقيمتها .

وعاش عبد الجليل الطباطبائي[١] تجربة الرحلة والاستمتاع بمعالم الطبيعة والسياحة في أحضانها الساحرة الجميلة، حين قام مع جماعة من رفاقه بنزهة بحرية في مياه الخليج العربي طافوا خلالها حول العديد من جزر البحرين. وقام الطباطبائي بنظم معالم الرحلة وأدّى دوراً مزدوجاً من خلال انتقاله في الزمان والمكان . فقد رصد فضاء الرحلة، وسجّل عوالمها المشاهدة، وأشياءها المسموعة، كما تكفل بدور الراوي فنقل الصورة من خلال رؤيته وبلغته الخاصة . وامتدت تلك الرحلة ما يقارب الأسبوعين، نَعِمَ أثناءها بأوقات سعيدة، ولحظات من المرح والبهجة تركت في نفسه أطيب المشاعر وأسعد الذكريات .

ومن ثم عمد إلى تسجيل معالم الرحلة وجزئياتها، في أرجوزة تتكون من واحد وثمانين ومائة بيت، وسمّاها " نزهة الجليس في وصف الديار"[٢]، ونزع فيها منزعاً توثيقياً رصد فيه كل ما رآه من مشاهد طبيعية وظواهر بيئية، كما نقل انطباعاته عمّن قابل من أشخاص . مما أعطى المنظومة طابع الشعر الجغرافي التسجيلي، المصوغ في قالب سردي، وبأسلوب لم يخلُ من الوجدان الصادق، وجنح في الكثير من الأحيان إلى التعبير الفني والأساليب الشعرية وتعبيراتها الأدبية مبتعداً قدر الإمكان عن جفاف النظم .

والأرجوزة بمعطياتها المذكورة يمكن تصنيفها ضمن الأدب الجغرافي أو أدب الرحلات وتسميتها بالنزهة تجوّزاً . وهي من باب إطلاق الجزء على الكل. لأن مفهومي النزهة والرحلة فيها يتداخلان . والنزهة في اللغة تعني التنزّه والخروج عن الموطن الذي يعيش فيه الإنسان ويتباعد عنه . كما تعتمد النزهة المكان البعيد، فكل مكان بعيد يعتبر نزهة[٣] . وأما الرحلة فتعني الارتحال، كما يراد بها في اللغة الكتاب الذي يصف فيه المرتحل ما يعرض له من مشاهد وأحداث، وما يراه من مناظر، مثل وصف الطبيعة الجغرافية، وعادات الناس وتقاليدهم، وأنماط حياتهم وتفكيرهم، وتاريخهم . مما يجعلها مرجعاً ثقافياً وتاريخياً مهماً[٤] . والمنظومة موضوع الدراسة تعدّ بالمعنى العلمي رحلة، وإن كان صاحبها قد أطلق عليها اسم النزهة .

وكانت اللغة التي كتبت بها تلك المؤلفات هي لغة النثر . لذا تكتسب منظومة "نزهة الجليس" ميزة وخصوصية، فهي من أدب الرحلات المنظوم شعراً. وتتمثل طرافتها وتفردها في اعتبارها إضافة مميزة على عدة مستويات : فقد صيغت نظماً وبدا فيها الكثير من مظاهر الشعرية، كما أنها تنتمي إلى مرحلة الهبوط الأدبي . فالرحلة تمت في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، فشكلت موضوعاً جاداً في جو غلب على مضامينه الابتعاد عن المصداقية . واكتسبت قيمة وثائقية برصدها الكثير من معالم البيئة الجغرافية لجزر البحرين، وأرّخت للحياة الطبيعية والفطرية فيها من نباتية وحيوانية، وبدرجة أقل للمعالم الأثرية والتاريخية . وقد تغيّر الكثير من معطيات ذلك الواقع البيئي بسبب الزحف العمراني والحضاري بعد تدفق البترول منذ العام ١٩٣٢م

وما أحدثه من تغييرات جذرية . فغدت تلك المنظومة سجلاً صادقاً للحياة الفطرية، ووثيقة أدبية تشهد لما كان لهذه الجزر من تاريخ طبيعي عريق وبيئة نباتية وحيوانية مزدهرة .

وصاغ الطباطبائي منظومته على بحر الرجز، وهو بحر نظمت على إيقاعه العديد من المنظومات والأراجيز العلمية والتاريخية العربية. وصبّها في قالب سردي حكى فيه مراحل تلك الرحلة وجزئياتها من بدايتها حتى نهايتها . واعتمد على آليتي السرد الروائي والوصف ليصب فيهما تعابيره، فأتت مفعمة بالوصف للمناطق التي زارها، وللشخصيات التي تعامل معها .

وبدأ الناظم بمقدمة عرّف فيها بنفسه تعريفاً سريعاً، وافتتحها بحمد الله والصلاة على الرسول ﷺ. ثم ألمح إلى الباعث على الرحلة وهو الترفيه والاستمتاع بجمال الطبيعة في جو من النزهة البهيجة مع الأصدقاء حيث يتبادلون الأحاديث الشائقة التي تطيب بها النفس، مما يجعل ذلك اللقاء الممتع من أعظم متع الحياة :

وبعـده فخيرُ لـذّاتِ الدُّنـا ... طيبُ اجتمـاعٍ بالكرامِ الفُطَنا

لا سيّما في أرضِ منتزهٍ رَضيْ ... يفصحُ كلٌّ فيه ما قـد يقتضي

والغرض العلمي إن لم يكن وارداً، لكنه تحقّق بشكل كبير .

ويشير إلى طبيعة الموضوعات التي تناولوها فيذكر أنها تتراوح بين موضوعات جادة وأخرى هازلة، ولحلاوتها وفائدتها لا ترتوي منها النفس :

من كلِّ معنىً في الحديثِ مُبْتكَرْ ... كأنهُ زهــرُ الرياضِ في البكَـرْ

نجني ثمارَ الــجدِّ في فنـونِ ... طـوراً وطوراً بِلَـحَ الـمجونِ

فذاكَ للأريبِ أهنـى مكتسـبْ ... لا يرتوي منه الظريفُ ذو الأدبْ

ويوسّع علماء النفس دائرة حوافز الرحلة فيرى "يونج" أنها تعبّر عن رغبة عميقة في التغيير الداخلي .. تنشأ مع الحاجة إلى تجارب جديدة أكثر من تعبيرها في الواقع عن

تغيير مكاني(٥) وقد تعبّر عن عدم الرضا بالواقع فيندفع الفرد نحو آفاق جديدة . هذا فضلاً عن أن حياة الاستقرار والرسوخ هي لون من التقوقع والجمود .

وعلى أية حال لم يكن الكشف والمغامرة هو دافع الطباطبائي من الرحلة وإن حققت بعض ذلك، بل كان متعة السفر ولذة التغيير والعيش في أحضان الطبيعة . فضلاً عن أنها وفّرت له التحرر من قيود الحياة وأعبائها، والتخفف من الضغوط النفسية، وكسر رتابة الحياة وجمودها، وتجديد لمفهومها . لقد مثلت بالنسبة للطباطبائي ضرباً من الشوق العاطفي أدّى إلى خلق هذا العمل الفني بـما فيه من ميل إلى العلمية والموضوعية .

تاريخ الرحلة : وحدّده معوّلاً على التاريخ الهجري فقال:

وكـــان مـــما يَسّرَ الربُّ الحـفي   أنّــا خـرجنا نقصــدُ النزهـةَ في

صُبحِ الخميسِ النصفِ من شهرِ رجبْ   في خامسِ الحوتِ وذا فصلٌ يُحبْ

من سـنةٍ فـي ضبْطـها أرْخْنـا   "عَنّـيَ للنزهـةِ قُلْ خَرجنـا"

والشطر الأخير يتضمن تاريخ الرحلة، وهو بحساب الجُمّل وكان هذا اللون من التاريخ شائعاً في عصر الناظم ويوافق ١٢٤١هجرية/١٨٢٥ميلادية . وتمت الرحلة في منتصف شهر رجب أي في حدود الرابع والعشرين من فبراير، واستمرت أسبوعين أي حتى سلخ رجب وهو ما يوافق العاشر من مارس تقريباً وأشارت إلى هذا التاريخ مقدمة المنظومة في الطبعة المصرية(٦) . وهذا يعني أنها تمت في بداية فصل الربيع، وعلل ذلك باعتدال الجو ومناسبته للنزهة "وذا فصل يُحبُّ" .

رفاق الرحلة : يعرّف رفيق الرحلة بأنه الشخص الذي ينتقل في الوقت نفسه والمكان نفسه والرحلة نفسها التي ينتقل فيها الرحّالة البطل(٧)، وهو الناظم هنا. وأشار الطباطبائي إلى رفقاء النزهة، ومدح بلاغتهم وفصاحة لسانهم، وأثنى على عراقة نسبهم وحسن سجاياهم وخصوصاً صفة التآلف والإيثار . مـما جعل الرحلة ممتعة صحبة ومكانا :

في رفقةٍ غُرِّ الوجوهِ كُمَّلِ ما منهُمُ إلا فصيحُ المقولِ

قومٌ كـرامٌ من كـرامٍ تُنْمَى مِمَّنْ زكى خالاً وطابَ عَمَّاً

قد ملكوا محاسنَ الأخلاقِ من كلِّ قِرْمٍ للعُلاَ سَبَّاقِ

باعوا الخلافَ واشتروا وِفاقَا فالكلُّ في حسنِ الطباعِ فاقَا

من طبعِهم إيثارُ ما تشاءُ لهم بذلكَ اليدُ البيضاءُ

وأشار إلى صنف آخر من الرفقاء وهم الغلمان الذين يقومون بخدمتهم وأشاد بلطف طباعهم ولين عريكتهم :

غلمانُنا كلُّ خفيفِ الروحِ لا ينفكُّ في بشرٍ وطبعٍ سَهْلا

لا يعبسونَ في صعوباتِ الخَدَمْ يخشون أن يُقالَ فيهمْ ما يُذَمْ

وأغفل الطباطبائي ذكر أسماء أولئك الرفاق، عدا شخصية واحدة ربما لأهميتها وهو الشيخ "عبد الله بن أحمد الخليفة" فقد ذكره بالاسم، وهو أمير من الأسرة الحاكمة في البحرين، ولعله هو الذي موّل المشروع، وأثنى على أخلاقه خاصة الشجاعة والثبات في الوغى والكرم وحسن الضيافة، كما أشاد بأصوله وكرم جذوره :

نجلُ الهمامِ الباسلِ المغوارِ إذا علتْ غَيَاهبُ الغبارِ

يخضبُ مَتْنَ الصارمِ البتَّارِ من هامةِ القِرمِ الجريِّ الواري

عنيتُ عبدَ اللهِ نجلَ أحمدِ سامي الذُّرَى ربُّ العُلا والسؤددِ

أمَّ الوفودُ نَحْوَه أفواجا لرفدِهِ قد قطعوا الفِجاجا

من مَعشرٍ شُمٍّ تعاقدوا على حُسن السجايا واكتسابِ للعُلا

آلِ خليفةٍ عظامِ المفخرِ من كلِّ قِرمٍ ماجدٍ غضنفرِ

وهناك شخصيات عني بذكر أسمائها وهم الأفراد الذين كانوا يقابلونهم في محطات الرحلة وفي القرى التي يزورونها، وكثيراً ما كان يحرص على ذكر صفاتهم سواء الحسنة أو السيئة .

مقتنيات الرحلة : وقف معها وقفة متأنية، وذكر أنها لونان : سلاح الصيد، والكتب :

سلاحُنا الأسيافُ والبنــادقُ وبالـرمايـةِ الجميــعُ حـاذقُ

وقد صحبنا معنا أسفـــارا نقطفُ من أسطـارها أزهارا

وأشار إلى تنوّع موضوعات تلك الكتب فبعضها يشتمل على الطرائف والنوادر، وبعضها الآخر في موضوعات الشعر والقصص، أو في الفقه والحديث .

......

وسيلة السفر : ذكر أنهم امتطوا قاربين تميّزا بدقة الصنع وإحكامه، وبالسرعة الفائقة والرفاهية، كما أشار إلى توسّط حجمهما وعلل ذلك بسرعة الحركة :

قد امتطينا قاربيـــن حُـفّـا بحسن تيسير الإلـهِ لطفـا

قد أُحكمـــا صناعـةً وعِـدّةْ أسرعُ من طرفٍ تطيلُ مَـدّه

أرفهُ مركوبٍ وفي خيرِ مقـرْ يضمُّنا ضَمُّ الصناديقِ البِـدَرْ

بل إنمـا هما لطيفـــاً جُرْمِ ليجريا في البحـرِ إذْ لم يَطْمِ

......

حركة الانتقال : لقد اتخذت الرحلة فعلاً دائرياً فقد انتهت من حيث ابتدأت، وقام الخطاب فيها على الترتيب والشكل . وبين زمني الابتداء والانتهاء تحقق الانتقال من مكان إلى آخر . وظل فعل الرحلة يقوم على التحديد الزمني كلما تمّ الانتقال في المكان، ومن ثم ملأت المؤشرات الزمانية والمكانية المسافة الفاصلة بين زمني الخروج والرجوع. وعملت هذه المؤشرات على تجزئة الخطاب إلى وحدات مختلفة، وضمنت ترتيب الفعل والخطاب وتسلسلهما[٨] . وقد تمت حركة انتقال الطباطبائي في فضاء جزر البحرين ومياهها، بيسر وسلام وعلى امتداد الرحلة، ولم تحدث أية معوقات بسبب انتظام حركة الرياح وهدوئها :

لمّا ركبْنا كـانت الريحُ لهـا   تحـرُّكٌ مطـابقٌ للمُشْتَهَى

ويذكر مختصو البيئة أن منطقة الخليج العربي تتميز في عمومها باعتدال تياراتها المائية، وتكون سرعة تلك التيارات واتجاهاتها خلال فصلي الشتاء والخريف قليلة، وتتراوح بين سنتمترين إلى ثمانية في الثانية . أما في فصل الصيف فتصل إلى ١٩سم في الثانية، وغالباً ما يكون اتجاه الرياح في منطقة الخليج شمالية أو شمالية غربية، وتصل سرعتها في فصل الشتاء أي من نوفمبر إلى مارس إلى أكثر من عشرة أمتار في الثانية[٩] هذا في عموم مياه الخليج العربي، ولا يختلف الوضع المائي والجوي في فضاء البحرين عن ذلك . وفي الجزء الشرقي من البحرين وهو المكان الذي انطلقت منه الرحلة يسير التيار موازياً للساحل من ناحية الجنوب، وتعمل المواقع والتضاريس التي تحت الماء على تخفيف اندفاع سريان التيارات البحرية الناتجة عن المدّ والحرارة[١٠] كما أن درجات الحرارة في الفترة التي تمت فيها الرحلة تكون عادة محببة، وتتراوح بين شهري فبراير ومارس بين ١٨,٢ درجة و٢٠,٣ درجة[١١] .

****

المكـان : ونقصد به الفضاء الذي اجتازه المتنزهون، والأماكن التي توقفوا عندها، فهو يمثل خط سير الرحلة . ولا يبدو أنهم وضعوا مخططاً لتحركاتهم، ولكنهم قطعوا خطاً دائرياً وكانوا يتوقفون عند المحطات التي تنال إعجابهم، ويغادرون سريعاً الأمكنة التي لا يجدون فيها راحة أو جمالاً طبيعياً .

وتمثل تلك المحطات التي مرّ بها الطباطبائي وتناولها بالوصف العمود الفقري للمنظومة، وتجسُد التفاعل الحيّ بينه وبين الطبيعة، كما تتضمّن القيمة الوثائقية التي سنركز عليها .

وتتجلى القيمة الوثائقية من خلال الوصف الذي عوّل عليه الناظم كآلية في النظم واعتمده كأداة فنية سجّل من خلالها ما رآه، فكان الوصف عنصراً رئيساً في نسيج المنظومة . وكان الناظم يلاحظ الأمكنة التي مرّ بها، واعتمد على حواسه في رصد مشاهدها . فذكر الصفات المرئية، وأشرك حاستي السمع والشم . لكن يبقى لحاسة البصر الدور الأكبر في تسجيل مرئياته، وكان يقف بحدقته أمام مناظر الطبيعة ويراقبها

ويتقراها ببصره، ومن ثم بنى موضوعه على الوصف وتقرير ما كان يشاهده من أشكالها وأوصافها تقريراً عاماً، فأتت الصفات واقعية تقريرية تنقل ما يراه وتسجله بأمانة وصدق . لذا غلبت على نظرته رؤية العالِم الذي يحدّق ببصره دون قلبه، مما جعل مشاهده أسيرة الإطار الخارجي المادي بشكل عام .

وإذا كان الوصف بحكم طبيعته الحركية ذات العمق زمنياً دفعنا إلى معاينة المكان ومواصلة الانتقال عبر الأمكنة التي يقف عندها الرحّالة واصفاً وبذلك تتشكل لدينا صورة مجسدة عن المكان، فإن السرد وهو الآلية التي استعملها الناظم والمقابلة للوصف والمكملة له تجعلنا أمام الأحداث التي كانت تجري من قبل، وتدفعنا إلى ملاحقة الحدث وجريانه في الزمان بوساطة التخييل .

ويبدو أن النزهة انطلقت من جزيرة "المحرق" وقد كانت مدينة "المحرق" عاصمة البلاد آنذاك، ومركز الحكم، ومكان سكن الناظم. كما يبدو أن الركب أبحر في الصباح الباكر متجهاً من الشرق إلى الغرب . وسنقوم في تتبع حركة الانتقال برصد المحطات التي مروا بها وبنفس الترتيب الذي ذكره الناظم(١٢)

....

المحطة الأولى : جزيرة "سترة" : وهي رابع جزر البحرين من حيث المساحة، بعد جزيرتي "المنامة" و "المحرّق"، وأم النعسان، وأخذ الطباطبائي في رسم ملامح المكان والزمان بواسطة آليتي السرد والوصف :

سِرنا على اسمِ اللهِ في مجراهما … كذاكَ باسمه لدى مرساهما

حتى قَدِمْنـا باعتجالٍ ستره … واللهُ مُسْبِلٌ علينا ستره

تَرَى بها النخيلَ باسقاتِ … من كلِّ نوعٍ لـذَّ للجنات

فيها ينابيعُ المياهِ قد جرتْ … في برِّها وبحرِها تَفَجَّرَتْ

فمذْ نزلناها ضُحَى النهارِ … في دارِ بخَاخٍ بلا استقرار

أقبلَ دعبلٌ بما نحتاجُ لَـهْ … من حَطَبِ النخلِ وذاك ناقلَهْ

زمن الوصول الغبش وظلمة آخر الليل، وزمن النزول هو الضحى . وعني الناظم بذكر أهم ميزتين لجزيرة "سترة" : كثرة النخيل والمياه المتدفقة، ويقال إن السبب في تسميتها "سترة" هو انتشار غابات النخيل وإحاطتها من كل جانب حتى تكاد تخفيها عن الأنظار، وربما دلّت الصيغة الأدبية، الكناية، "الله مسبل علينا ستره"، على غنى الجزيرة بالخضرة والأشجار حتى تكاد تسترهم، أو ربما دلّت على الظلام حيث إن وصولهم كان قبل بزوغ الخيوط الأولى للنهار . ويذكر أن أشجار النخيل، وحتى نهاية الستينيّاتِ من القرن الماضي، كانت تغطي ثلاثة أرباع مساحة الجزيرة[١٣] تقريباً، ووصف الناظم نخيلها بالارتفاع والجودة وحلاوة الطعم، وتدل عبارة "من كلِّ نوع" على توافر جميع أصناف الرطب في تلك الجزيرةِ الجميلة . ومن صنوف التمر الذي اشتهرت به هي وغيرها من جزر البحرين : "الخُلاص"، "الغُرّة"، "المرزبان"، "الخنيزي"، "الحلاو" وغيرها .

ويتوافر في "البحرين" أكثر من مائة صنف تختلف في حجمها ولونها ومواعيد نضجها[١٤]، هذا فضلاً عن غنى هذه الجزيرة بالأشجار المثمرة الأخرى خاصة الفاكهة والخضراوات، ومن محاصيلها : الرمانِ والتين واللوز المحلي والبطيخ[١٥]، مما جعلها جنة خضراء، وأضفى عليها سحراً وجمالاً وقيمة اقتصادية . ويشير البيت الثالث إلى ظاهرة طبيعية مهمة تتمتع بها جزيرة "سترة" وبقية جزر البحرين كذلك، وهي انتشار عيون المياه الطبيعية والمتدفقة، وهناك ضربان من تلك العيون يشير إليهما الناظم وهما : العيون البرية ؛ ومن أشهرها في سترة : عين "مهزّة"، وعين "الرَّحى"، وعين "عبدان"، وعين "بويز"، وعين "حميمة" وغيرها . والضرب الثاني وهو العيون البحرية، ويطلق عليها اسم "الكواكب" وهي ظاهرة تتفرّد بها منطقة البحرين، إذ يتفجر الماء العذب بغزارة وسط مياه البحر المالحة ؛ ومن أشهر كواكب سترة: كوكب "البنات"، وعين "أبوسنان"، وعين "الظهر"[١٦] . وقد أعطى وجود هذه العيون البحرية تميزاً لا لجزيرة "سترة" وحسب، بل لمنطقة البحرين، وأكسبها تفرداً وقداسة كما تشير إلى ذلك ملحمة "جلجامش"[١٧] .

توجّه الركب المبحر بعد ذلك إلى جزيرة مجاورة لـ "سترة" وهي جزيرة "النبيه صالح"، ولم يعرض لذكرها ربما لاشتراك الجزيرتين في المزايا نفسها، واكتفى باعتبار

زيارتهم لها مغنماً أصابوه "ومذ غنما نزهة الجزيرة ..". والغنم هو الفوز بالشيء من غير مشقة . وفي التعبير دلالة على ما حققوه من متعة، نظراً لما تتمتع به "جزيرة النبيه صالح" من سحر وجمال، واستخدام الطباطبائي الاسم المختصر والدارج لها "الجزيرة" .

....

المحطة الثانية : قرية "جَوْ" وبتغيّر المكان يتغيّر مضمون الخطاب الذي ساد في الفقرة السابقة . وينتقل الناظم من الأسلوب الوصفي للطبيعة إلى الحديث عن الجانب السياسي والاجتماعي، وعن الديار الخالية، والسكان الراحلين، وأسباب الرحيل، مع المقارنة بين الوضعين ومدح أولئك المغادرين معوّلاً على آليتي السرد والوصف :

ومُذْ غنمنا نزهـــــةَ الجزيره	سرنا إلى جـــوٍ بحسن سيره
المنزلُ الذي عَفَتْ رسُومُـــــهُ	مُذْ أفلتْ من أفقـــهِ نُجومُـــهُ
من بعدِ ما كانَ محطُّ الرَّحْـــلِ	يَلْقَى بها الطارقُ خـــيرَ أهلِ
ومعقلَ الوُفُـــودِ والضيـــوفِ	ومأمنَ الطريـــدِ والمخـــوفِ
يزينُهُ غُرٌّ به سُكَّـــــانُ	هم الحُماةُ الصيدُ والشجعـــانُ
من كل فاضـــلٍ نقيِّ العِرْضِ	أشمُّ غطريـفٍ جـــوادٍ مُرْضي

لقد استخدم الناظم مؤشراً زمانياً مكانياً للدلالـــة على حالة الانتقال "ومـــذ غنمنا .."، وعرضت الأبيات وصفاً للمنازل الخاوية، مشوباً برنّة من الحزن والأسى، كما ضمنها إشارة إلى الشيخ أحمد بن رزق، الشخصية المرموقة آنذاك، والمتوفى في ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م، ويقال إنه أشهر من نزل قرية "جوّ" فبناها، وأنشأ بها مساجد وبركاً عظيمة لخزن "المياه" غاية في القوة والإحكام، كما شيّد بها قصوراً شامخة ثم نزح عنها إلى "الزبارة" في "قطر" . وبقيت هذه البلدة مهجورة تصفر في أنحائها الرياح، حتى نقل إليها الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح، ثاني حكّام البحرين من آل خليفة أسرته عندما شعر بالتهديد الموجّه للزبارة موطنه الأول، وأسكنهم في قرية "جوّ"[١٨]، وبعدها نقلهم إلى

مدينة "الرفاع" حينما بناها . وتمثّل الطباطبائي كل هذه الأحداث وهو ينظم أبياته ، كما ضمّنها ثناء أشاد فيه بأخلاق أهلها، وما تحلوا به من كرم وعفة ونقاء سريرة وشجاعة وإباء، ووقف موقفاً مغايراً من صنف آخر من أهل هذه القرية ووسمهم بالخيانة وذمّهم وعلّل ما أصابهم من تمزّق بغدرهم وقلة وفائهم، وما نجم عن ذلك من رحيل زعمائهم وأخيارهم :

قَضَى عليها الدهــرُ بالــخرابِ	حتَّى غدَتْ مســاكنَ الضِّبابِ
وذاكَ أمــرُ اللهِ حيثُ أحكمــــه	بدا بأهلها اختلافُ الكلمـــه
وبعضُ أهليهـــا نَحَى الخيـــانه	بغياً بلا جُــرمٍ ولا امتهــانهْ

وعرض لصنف ثالث من أهالي قرية "جوّ" انتحوا ناحية وواصلوا عيشهم وهم صيّادو السمك ، ونوّه الطباطبائي بمهارتهم في الصيد ومعرفتهم الدقيقة بالأسماك ومميزات كل صنف ومواسم صيده :

فعادتِ الــدارُ طلــولاً خاويــه	فلا يجيبُ الربــعُ منها داعيــه
سوى فريقٍ حلَّ منهـــا ناحيــه	وكلُّهم في الصَّيد هــادٍ داهيــه
مميِّــزُ الأجنـــاسِ والأنـــواعِ	في ســردِ أسماها طويلُ الباعِ
لا يجهلُ الحيتانَ فــرداً فــرداً	يعرفُ بـــدءَ صيدهـــا والحدَّا

وامتدح الناظم أخلاقهم فقد قدّموا لضيوفهم وهم رفاق الرحلة أطيب ألوان السمك وأجوده . واقتصر الناظم على ذكر نوع واحد من السمك وهو "الجرجـور" أي سمك القرش(١٩) الذي يفترس حيوانات البحر ويقطعها بأسنانه كما يقطع السيف :

فبادرونا منه بالغضِّ الطــري	من خـــيرِ موجـودٍ بزعم المُخْبِرِ
وكلَّ "جرجورٍ" طويلِ السَّيفِ	فأكثــروا منـــه بغـــيرِ خَيـــفِ

وهكذا ألمح الناظم إلى غنى قرية "جوّ" بأصناف السمك، إلا إنه أضرب عن ذكر أنواعه عدا "الجرجور" ومما زاد في استمتاع المتنزهين في تلك القرية تدفق المياه وكثرة العيون فمكثوا فيها ثلاثة أيام على الرغم من كثرة أطلالها وما توحيه من وحشة . ولا يفوتنا أن نشير إلى النفس الأدبي الذي بعثته تلك الأطلال في نفس الناظم حيث ذكرته بمواقف أسلافه من شعراء العربية حينما كانوا يمرون بديار أحبتهم . فوقف على الأطلال وتغزّل وتأسّى لوحشتها :

دارٌ لربـاتِ الحجـال الخُـرُدِ   من كلّ هيفـاءٍ بقدٍّ أمْيَـدِ
ذاتِ اللمَى المعسولِ والثغرِ الشُنُبْ   وعقـربِ الصدغِ لمضناها تدبْ
ترسـلُ من شعـورِها أفاعيـا   تنهشُ قلْبَ الصبِّ وهي ما هيا
فأصبحـتْ أطلالُهـا تُسائِـلُ   أينَ الدُمَى وهاتِكِ الخلاخِلُ ؟

ومع ما في الأبيات من فتور عاطفي لم تَخْلُ من نفحات فنية تمثلت في تشبيه ضفائر النساء بالحيّات التي تنفث بسمومها في قلب المحب، كما برز الحس الأدبي في تساؤل الديار عن أهلها بحسرة عن أولئك اللواتي كنَى عن جمالهن بالدمى .

....

المحطة الثالثة : "حدّ الجمل" وتقع جنوب "جوّ" ووصلوها زماناً في الضحى :

حتى تجاوزنا ضحىً حدَّ الجمَلْ   هنـاك أرسينـا بمنزل يُمَـلّ
في قفـرةٍ ليسَ بهـا أنيسُ   ولا يعـافيـرُ(٢٠) وليس عـيسُ

استخدم الناظم مؤشرات زمانية مكانية "حتّى ... هناك" لربط ترتيب التنقلات المكانية وتسلسل الرحلة . وقد تركت وحشة المكان أثرها النفسي وتسببت في تسرب الملل إلى نفوسهم . فقد كان مجدباً لا حياة فيه ولا أثر لنبات أو حيوان . مما اضطرهم إلى الإسراع في مغادرته، والبحث عن مكان أكثر بهجة وجمالاً، ومن ثم غيّروا اتجاههم وداروا نحو الساحل الغربي قاصدين محطة جديدة .

المحطة الرابعة : وهي "رأس عيّاش" :

حتى نزلنـــا الراسَ للعَيـــاشِ — من غــير إزعـــاجٍ ولا انكمـاشِ
بتْنا بأرضٍ خيرُ ما فيها الحطبْ — لكنْ من الشمسِ أتى بعضُ التعبْ
ما شائنهـــا إلاّ مَخَـاضٌ طَـــالاَ — لبعـــدِهِ قـــد أتعبَ الرجـــالا
وأصبـحَ الضُبـــابُ كالنساجِ — بُــرْداً يـــمدُّه على الفِجـــاج

اتكأ الرحالة على عنصر السرد للتعبير عن الحركة والانتقال الذي تم بسهولة ويسر نظراً لهدوء الرياح ومواءمة حركة المياه . كما استند على آلية التقرير لتجسيد حالة المكان، فوصفه بكثرة الخشب، وهذا يدل على وفرة الأشجار والنباتات البرية التي جفت وخلّفت ذلك الركام، والسبب المؤثر هو ارتفاع حرارة الشمس، وقد أشار الناظم إلى ذلك، فقد ساهمت في تجفيف الأشجار وتحويلها إلى حطب . كما أن تلك الحرارة سببت للرحالة ضيقاً نفسياً، وزاد في إزعاجهم اضطرارهم إلى الخوض في المياه . ويبدو أن البحر كان في حالة جَزْر ونضوب . وأشار الطباطبائي إلى ظاهرةٍ طبيعيةٍ ظهرت بين ذلك المكان وهي كثرة الضباب، ورسـم صورة فنيـة فتصوّره بـرداً منسوجاً امتدّ واتسع ليشمل كل شيء .

....

المحطة الخامسة : وهي "دوباس" :

وكانت مرفأ يقع بالقرب من ربوة في نهاية الساحل الجنوبي الشرقي أي في منطقة "رأس البر" وهو يقع في نهاية الطرف الجنوبي لجزيرة البحرين حيث يلتقي الساحلان الشرقي والغربي . ومدح الناظم هذا المكان وأثنى عليه :

حـتّى تـجاوزْنا إلى "دوبـاس" — في ربـوةٍ بتْـنا شـمالَ الــراس
يـا حُسنهُ من بنــدرٍ مقـــاربِ — حبلُ الخبــاءِ عند حبلِ القاربِ

....

المحطة السابعة : وهي جزيرة "أم النعسان" :

"أُمُّ نعسانَ" نـحوها عبرنـا ومُـذْ رأينـا وضعَهـا اعتبرنا

شاطِئها غرباً به كهفٌ جَبَلْ بطـولِهِ يقطـرُ مـاءٌ للنَهَلْ

يجري إلى البحرِ وينبتُ القصبْ بينهمـا وذاك من أوفى العَجَبْ

فالموجُ يرقى لا يميت الوجَمَهْ وكلُّ صُنعِ اللهِ جَلَّ أحكمَهْ

في الكهفِ حوضٌ فيه صَبٌّ البارِدا منـه ارتـواءٌ مَـن يمرُّ واردا

وإن في أثنائها أو في الجبلْ دُكْدِكٌ بعضُـهُ وباقيـهِ قُلَلْ

وفيـه كـمْ مَغَـارةٍ مُضلَّـهْ ليستْ على الداخلِ بالمظلَّهْ

وبعضُهـا يشبـهُ نحتَ العملِ وموضـعُ البابِ مع القفلِ جَلِيْ

حـوضٌ مربَّعٌ أتَـى في ذروتِـهْ مجرى السيولِ قاصـدٌ لوجهتِهْ

وبـعضُ عشـبٍ مزهـرٍ في سفحِهِ تستنشقُ الطيبَ بشـمِّ نفحِهِ

فيهـا مراعٍ شـملتْ أكنافَهَـا تُغني ولـو لم تبلغـنْ أطرافَهَا

ربط الناظم بين هذه الوحدة والوحدة السابقة لها بمؤشرات مكانية زمانية هي "نحوها عبرنا" معتمداً على آلية السرد ومسلسلاً الأحداث من خلالها . ووقف وقفة متأنية أمام جزيرة "أم النعسان" واصفاً معالمها محدداً أبرز سماتها، وهي ظاهرة التقاء البحر بالجبل، والتي لا وجود لها في بقية الجزر . لقد فصّل جزئيات المشهد وشدّ انتباهه الكهف الذي استقر في بطن ذلك الجبل، وأثار دهشته الماء المتدفق على جوانب الكهف وجريانه في أرض مليئة بنبات القصب ثم انصباب ذلك الماء في البحر . لفت نظره كذلك الأمواج المتدافعة نحو الجبل التي لم تستطع قهره وإزالته فبقي صامداً متحدياً، ووصف الحوض الكائن في الكهف والمليء بالماء البارد والذي أصبح منهلاً

للواردين . وأشار إلى المغارات الكثيرة ذات التفريعات المتداخلة التي تتوه من يدخلها وأثار عجبه أنها مكشوفة أمام أشعة الشمس وخالية من أية ظلال، ولجمالها وروعة منظرها تصوَّرها من صنع نحات ماهر، وذكر بروز موضع الباب الرئيسي فيها . كما التفت إلى تعاريج الجبل، وأشار إلى ما انتشر على سطحه من حفر امتلأ بعضها بالماء وكان بعضها الآخر خالياً منه . كما شدّه الحوض المربع الواقع على رأس الجبل الزاخر بالمياه المتجمعة فيه بفعل السيول . ووصف بإعجاب السفوح الخضراء المزدانة بالأعشاب المزهرة التي تنشر عبيرها الفوّاح، كما أشار إلى المراعي الخضراء المنتشرة على أطراف الجبل، وإلى الثعابين الكثيرة وتنوعها بين حيّة وميتة، لقد أطنب الطباطبائي في وصف المشهد الطبيعي بدافع الإعجاب . وقد دفعهم الابتهاج إلى إحياء حفلة طرب تنعش نفوسهم وتعمّق الإحساس بالسعادة في قلوبهم، ولميل الناظم إلى التوثيق والتسجيل ذكر اسم المغني وهو "إبراهيم بن أحمد النديم" وأشار إلى أنه ينتسب إلى البرامكة، ولإعجابه به تصوّر أنه فاق "إبراهيم الموصلي" وابنه "اسحاق" المطربَين الذائعي الصيت في العصر العباسي، فاقهما في جمال الصوت وحسن الأداء(٢٣) .

....

المحطة الثامنة : واصل الرحالة سيرهم شمالاً ومرّوا بعدة جزر لم يذكرها الناظم بالاسم، ونعتقد إن أهمّها جزيرتا "جدة" و "أم الصبان" "المحمدية" الآن . ووقف أمام ظاهرة لم ترد فيما سبق :

لـمّـا تـركناهـا أتـى المسيرُ	بين جـزائرٍ بها الطيورُ
ما بينَ واقعٍ بهـا أو طائـرِ	قاطبـةً بهـاتِكِ الجـزائرِ
ترتاعُ من شـدّةِ جَري المـاءِ	لضيقِ مجرى هاتِكِ الأرجاءِ

ويوثق هذا المقطع عنصراً طبيعياً مهماً في جزر البحرين، وهو غناها بالطيور المتنوعة، واعتنى الراجز بوصف أوضاعها، فمنها ما هو طائر في الجو، ومنها واقع أو واقف على رجله على الأرض، ورصد حالتها النفسية؛ فبعضها مطمئن، والآخر قد اشتدّ

وقد رأى الصحبُ بهـــا كم حَيَّةْ ميتةٍ فيهـا وكم مـن حَيَّـــةْ

فلفظة "حيّة" الأولى اسم جنس لنوع من الثعابين، والثانية لفظة مشتقة من الحياة عكس الموت وقوله :

حتى قَدِمْنـــا باعتجالٍ ستْرَهْ واللهُ مُسْبِل علينـــا ســتْرَهْ

فاستخدم في لفظ "سترة" المعنيين الاصطلاحي وهو اسم موضع لإحدى جزر البحرين، والمعنى اللغوي وهو من ستر الشيء[٢٨] .

ومن الجناس غير التام وهو ما اختلف فيه اللفظان في أنواع الحروف أو أعدادها أو هيئتها من الحركات والسكنات، أو في الحروف وترتيبها . وورد الجناس المضارع، وهو ما أتى فيه الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج، ومنه :

في الكهفِ حوضٌ فيه صَبُّ البارِدا منـه ارتـواءُ من يـمرُّ وارِدا

حتى نزلنـــا في فنـــاءِ القَلعَــةْ والنخـلُ حولـها إبانَ طَلْعَةْ

وامحُ إلهي صُحُـفَ الخَطَايـا فضلاً فأنت موجِد العَطَايـا[٢٩]

ومن الجناس الذي أتى فيه الحرفان المختلفان متباعدين في المخرج، وورد بكثرة قوله في وصف كتب الحديث التي أرفقوها معهم :

كـذا من الحديثِ سِفْرٌ كـافي وهـو لـداءِ الجهـلِ خيرُ شافِ

وقوله في الثناء على أصحابه :

من كلِ فاضـلٍ نقـيِّ العِـرْضِ أشـمُّ غطـريفٍ جـوادٍ مُرْضِي[٣٠]

ومن الجناس الناقص الذي ورد فيـه الحرفان مختلفين في العـدد وورد بكثـرة – أيضاً – وعلى الخصوص ما سمّي "المطرّف"، وهو ما يرد بزيادة حرف واحد فقط كقوله في تقريظ أخلاق الرفاق :

باعـوا الخلافَ واشـتروا وِفاقـا   والكلُّ في حسنِ الطـباعِ فاقـا

تـرى بهـا عجائبَ المبـاني   دلّتْ على علوِّ شـأنِ البـاني

ومن الجناس المذيّل وهو ما زاد فيه أحد اللفظين على الآخر بأكثر من حرف :

فيها ينابيعُ المياهِ قد جَـرَتْ   فـي بــرِّها وبــحرِها تَفجَّرَتْ

وقوله في ذمّ رجل:

لا يحسنُ القـولَ ولا استماعَه   يحسبُنـا نغصبُــهُ متَـاعَهْ

ومن الجناس المذيّل الذي ورد فيه اللفظان متجاورين فزادت جرعة الموسيقى:

مَرَّ بنـا في عـامرِ النخيـلِ   راقتْ ولـو بظلِّهـا الظّليلِ

الطبـاق:

للطباق وظيفة دلالية لا تخلو من جمال، فله دور في توضيح المعنى بما يكشفه من ضدّ وضدّ الضّد، وما يخلفه من صلات بين الألفاظ والمعاني .

وأغلب ما ورد من طباق في المنظومة هو في مقام القافية، وغالباً ما يأتي اللفظ الأول في بداية العجز والثاني في نهايته، أي في مقام القافية . وأكثره يرد منسجماً أي بين اسم واسم كقوله مطابقاً بين لفظين بينهما شبه تضاد :

لـم يكنِ الساحـلُ ذا ابتعادِ   مَلاّحُنا يجيبُ نـجوى الحادي

وينمّ الطباق عن حالة من التجاوب بين الصوتين كما يكشف عن واقع التناغم والتآلف بين بيئتي البر والبحر[31]، وقد يأتي المتضادان منوعين بين فعل واسم :

فسيحـةُ بديعـةُ التفصيـلِ   يقصـرُ عنها الوصفُ بالتطويـلِ

ويشي اللفظان المتضادان بعظمة القلعة فمهما أطال المتحدث الحديث عنها فكلامه قاصر عن إيفائها حقها .

وقد يرد لفظا الطباق متجاورين في نهاية العجز، مثاله :

حَاطَ بها سوران ثم الخندقُ ... يعجبُ راءٍ عَرضُه والعُمُقُ

فالإحكام في البناء شامل لأجزاء القلعة بما فيها من طول وعرض واستعمل الناظم لفظة شبه متضادة لأن عكس العرض هو الطول وليس العمق .

وقد يرد اللفظان موزعين بين حشو العجز وقافيته :

قد أوثقوا العهدَ على صدقِ الإخا ... في حالةِ الشدة أو حالِ الرخا

ودلَّ الطباق على دوام الإخاء واستمراره بين أصحاب الرحلة، يستوي فيه حالتا الغضب والرضا(٣٢) ونادراً ما ترد مفردتا الطباق في حشو العجز كقوله :

فيها ينابيعُ المياهِ قد جرتْ ... في برِّها وبحرِها تَفَجُّرَتْ

ويوحي المتضادان بانتشار العيون في جزر البحرين بما فيها من عيون برية وعيون بحرية، فضلاً عن خدمة الطباق للمعنى فقد أغنى الموسيقى لما بين اللفظين من مجانسة . وقد يأتي اللفظان المتضادان موزعين بين الصدر والعجز، وهو قليل. ومما ورد أحد اللفظين في مقام الضرب والثاني في حشو العجز :

وقد أزاح الله عنا الثُقلا ... فلا ترى إلا ظرافاً نبلا

ووسم الناظم أصحابه بخفة الدم وميَّزهم عن الثقلاء، الذين أبعدهم الله عنهم . ومما ورد فيه اللفظتان المتطابقتان موزعتين بين الضرب والعروض قوله :

سرنا على اسمِ اللهِ في مجراها ... كذاكَ باسمه لدى مرساها

ودلَّ الطباق على توكل الرحالة على الخالق في جميع الحالات سواء في حالة توقف القاربين أو في حالة سيرهما . وقد يرد لفظا الطباق متباعدين موزعين بين حشو الصدر وقافية العجز :

نجني ثمارَ الجدِّ في فنونِ ... طوراً وطوراً مِلَحَ المجونِ

ويوحي لفظا الطباق بتنوّع أحاديث الرحالة واختلافها بين أحاديث علمية جادة ونكات هازلة .

ونادراً ما تأتي اللفظتان في صدر البيت كقوله :

مــا بينَ واقعٍ بهــا أو طائــرِ   قــاطبــةً بهــاتك الجــزائرِ

ونمّ الطباق عن تنوّع حالات الطيــور وأوضاعها التي حلّت بتلك الجزيرة أو سكنتها .

أما المقابلة وهي المطابقة المبنية بين جملتين فنادرة، ووردت مرة واحدة فقط وهي :

(باعوا الخلافَ) و(اشتروا وِفاقا)   فالكلُّ في حسنِ الطباعِ فاقـا

وتوحي المقابلة بقوة اللحمة بين رفقاء الرحلة، فقد انصرفوا عن كلّ ما يوقع الفرقة بينهم، وشبكوا أيديهم على التآلف والتلاحم فيما بينهم وعلى أية حال لم يثقل الناظم المنظومة بالبديع ولم يسرف في استخدام فنونه .

التصوير

الصورة من الآليات المهمّة في العمل الفني، ودعامة رئيسة في مجال وصف الأحاسيس والوجدان الإنساني، ومصدرها الخيال حين يقترن بالحياة العاطفية الزاخرة بالمشاعر. واستخدمها الطباطبائي بشكل محدود، فقد كان يميل إلى التعبير المباشر عن معانيه، ولا غرو فقد كان يصوغ نظماً ولا يكتب شعراً. وأكثر ألوان التصوير أتى في مجال الوصف وشكّلت الطبيعة أهم مصادر الخيال عنده ففي إطارها تنزّه ودار، وفي ربوعها تلذّذ واستمتع، فلا عجب أن تلهمه وتغذي خياله. فأتت في المنظومة مادّة موصوفة، كما أتت مادة واصفة. وتركزت جلّ صوره على عناصر الطبيعة الساكنة، من ظواهر طبيعية كالسراب والأمواج والسحاب والأطلال والصبح والليل والصحراء؛ وقلّ ورود الطبيعة الحيّة، من حيوانات وطيور .. الخ .

ويأتي التشبيه وهو أبسط أنواع الصورة على رأس الصور الشعرية في الأرجوزة . ومما أتت فيه الطبيعة مادةً موصوفة وواصفة في الآن ذاته قوله : "في رملة كأنها الدهناءُ" فقد ماثل رمال الساحل في نعومتها ولطفها برمال صحراء الدهناء .

وقد تأتي الطبيعة مادةً موصوفة، وهو الغالب . وفي هذا السياق عادة ما يربط بين الطبيعة ومقتنيات الإنسان، من ذلك تشبيهه الضباب في امتداده وانتشاره بالبرد المنسوج الواسع الذي أسدل على الطرق فغطاها :

وأصبحَ الضُّبابُ كالنساجِ بُرْداً يمدُّه على الفِجاجِ

واستخدم الطبيعة مادة واصفة بشكل محدود، فقد ضارع الموضوعات التي تداولوها في أحاديثهم بأزهار البساتين في الصباح الباكر في عبقها ليدل على عذوبتها وإنعاشها للنفوس :

من كلِّ معنى في الحديثِ مبتكَرْ كأنهُ زهرُ الرياضِ في البكَرْ

واستطاع الناظم من خلال تجسيد المعنوي في صورة المادي أن يعبر عن أثر تلك الأحاديث وقدرتها على إمتاع القلوب . وإذا غلب على تشبيهاته التشبيه المرسل، وهو ما ذكرت فيه الأداة، فإنه استعمل التشبيه البليغ (المؤكد) وهو ما حذفت منه أداة التشبيه، وبدرجة أقل . فقد ماثل المركب وقد احتضنهم بالصندوق وهو يحمل بالبدر، وهي الأكياس المحتوية على الأموال، فدلّ بذلك على نفاسة المركب والركّاب :

أرفَهُ مركوبٍ وفي خيرِ مقرّ تضمُّنا ضمَّ الصناديقِ البِدَرْ

وترد الكناية في المنظومة بشكل محدود، ومن كناية الموصوف والتي تدل على المكنّى عنه :

نجلُ الهمامِ الباسلِ المغوارِ إذا علتْ غياهبُ الغبارِ

فالشطر الثاني يرمز إلى ميدان القتال حين يحتدم الوغى ويثور غبار الوطيس فدلَّ بذلك على المجال الذي تتجلى فيه شجاعة الممدوح .

ومن كناية الصفة والتي تومئ إلى صفة يتجلّى بها الموصوف وهو الممدوح هنا :

الماجدُ الندبُ الـجوادُ العبقـري   كهفُ العفـاةِ غيثُ مـحلٍ مُغْبِرِ

فالشطر الثاني تجسيد لخلق الكرم والجود الذي يتمتع به الممدوح . أما الاستعارة فترد بندرة وقلة ، ومنها :

باعـوا الخلافَ واشتروا وِفاقـا   فالكلُّ فـي حسنِ الطباعِ فاقَـا

فصوَّر الخلاف شيئاً مادياً يباع ، والوفاق عنصراً يشترى . وتتمثل الاستعارة التصريحية في قوله :

المنـزلُ الذي عَفَـتْ رسُـومُهُ   مُـذْ أفلتْ من أفقـهِ نجومُهُ

فرمز بالنجوم الآفلة إلى سكان الديار الذين رحلوا عنها وأوحشوها وكانوا كالنجوم رفعة وضياء وهداية وعطاء .

ويلاحظ أن العنصر الرئيس الذي حظي بالنصيب الأوفر في تقنية التصوير هو وصف الطبيعة ، فقد كانت تخلب لبّه ، وتحرّك مشاعره وتفتق خياله ، فينزع إلى التصوير ، ووصفه لجمال قلعة البحرين بسحر بساتينها وفتنـة طبيعتها ، وقد مرّ خير مثال على ذلك . على أن جلّ صوره أتت مستهلكة ليس فيها جديد .

السردية في خطاب المنظومة

منظومة "نزهة الجليس" نص سردي قوامه بنية سردية تهدف إلى نقل الواقع المادي بشكل مباشر . وشكّلت هذه الأرجوزة فضاء مفتوحاً توافرت فيه مقومات السرد ، وتاريخية الوقائع وجغرافية الأمكنة(٣٣) . وهي وإن اقتربت من القصة نراها ليست جنساً قصصياً يخضع لشروط القص وحسب ، فهي رحلة لها واقعها التاريخي بأشخاصها وأزمنتها وأمكنتها . فهي نمط من القصة والتاريخ ، وفيها من القصة عنصر التشويق ، كما توفر فيها من القصة آلية السرد التي سيطرت على خطابها ، وكان صوت الناظم هو

المسيطر فيها . وتمثل التاريخ في الجانب التوثيقي الذي برز في هذا العمل من ذكر للأسماء، والوظائف والتواريخ التي توثق ارتباط الرحلة بزمن معين[٣٤] .

وقام الطباطبائي بدور مزدوج، فقد قام بالفعل المادي للرحلة وهو الارتحال والتنقل، فهو البطل الروائي الذي خاض غمار هذه التجربة الدرامية بما فيها من مواقف، وهو الذي تجوّل وراقب ما رآه ورصده في فضاء الرحلة الذي تحرّك فيه . وقام في الوقت ذاته بعمل آخر موازٍ وهو سرد مشاهداته وما صادفه من أحداث مستخدماً ضمير المتكلم الجمع .

وقدّم لنا تلك الوقائع بواسطة آليتي الوصف والسرد، فالوصف وبحكم طبيعته الحركية ذات العمق الزمني، دفعنا باستمرار إلى معاينة المكان، ومواصلة الانتقال عبر الأمكنة التي توقف عندها الرحّالة واصفاً وبشكل يجعل كل مكان مميزاً عن الآخر . ووضعتنا الأوصاف تلك أمام عوالم قابلة للتجسيد بحيث جعلتنا قادرين على تشكيل صورة مادية ملموسة للأماكن المذكورة . وبطبيعة الحال لم يكن الناظم يصف إلا ما يترك في نفسه أثراً إيجابياً أو سلبياً، وبتأثير ذلك لا غرابة أن نجد في خطاب الرحلة مقاطع تقوم على الحذف والتلخيص، وأُخَر تسهب في ذكر الجزئيات والتفاصيل . ولأن الرحّالة يقدم لنا معرفة مبنية على العيان كانت غالباً معرفة موضوعية لا مجال فيها للكذب، وإن كانت تمثل رؤيته أو وجهة نظره، وعلى ذلك قام بعملية إنطاق وتلفيظ للرحلة وسرد ما رآه ورواية ما شاهده ورصد جزئياته، وذكر ما وقع عليه . فجعلنا وبشكل دائم أمام أحداث تجري قبل الآن، الأمر الذي دفعنا بصورة خاصة إلى ملاحقة تبدل الحدث وجريانه في الزمان وحتى النهاية[٣٥] . واضعاً إيانا وبتلك الآلية أمام عوالم خطابية قابلة للتخييل .

فصيغة الخطاب في الرحلة مختزلة في ثنائية السرد والوصف (التقرير)، ومن خلالهما تتحصّل لدينا معرفة موضوعية عن الفضاء الذي تمت فيه الرحلة .

لقد تماهى في بنية الرحلة خطاب الرحلة مع فعلها ومع عوالمها، وسعى الرحّالة الناظم إلى مواكبتها منذ البداية حتى النهاية مبتدئاً بتحديد دوافع الرحلة، وزمن الخروج ومكانه . كما عنى بتحديد جلّ انتقالاته في المكان، فواكبَ خطابُ الرحلةِ تلك

التحولات، وحتى الرجوع إلى نقطة الانطلاق، فكنا مع الرحَالة أمام فعل دائري يصحبه خطاب دائري[٣٦]، فانبنى ذلك الخطاب على الترتيب والتسلسل وظلّ فعل الرحلة يقوم على التحديد الزماني كلما تمّ الانتقال في المكان .

وأدّت المؤشرات الزمانية والمكانية وظيفة ملء المسافة الفاصلة بين زمن الخروج وزمن الرجوع، فعملت على مفصلة خطاب الرحلة، وتقسيمها إلى مراحل ومحطات. وعمل التناوب في بنية الرحلة بين السرد والوصف، التقرير، على ترابطهما وتكاملهما. وقد جعل السرد إطاراً لخطاب الرحلة، والوصف متضمناً، ولكنه الأساس، فبالسرد افتتح الخطاب وبه انتهى . وملأت المؤشرات المكانية والزمانية المسافة الفاصلة بين زمن الخروج وزمن الرجوع، ومن تلك المؤشرات: "ثم ارتحلنا"، "حتى تجاوزنا"، "ثم قطعنا"، "حتى نزلنا"[٣٧] .

هكذا التقى في أثناء منظومتنا الأدب بالجغرافيا والتاريخ . وقد بدت الصبغة الأدبية بارزة، وتمثلت في سياق التفاعل الحي بين الناظم والطبيعة . وتجلت القيمة الوثائقية من خلال الوصف الذي شكّل محوراً مهماً في بنية النص، فقد اتخذه الناظم آلية فنية، وأداة لتسجيل ما تقع عليه عيناه من صور، وكان يشرك حواسه الأخرى في ملاحظة ما يراه من مشاهد تشدّه فيقف بحدقته أمام مناظر الطبيعة ويتقراها ببصره، ويسجّل بشكل تقريري ما يراه من أشكالها وصفاتها تقريراً واقعياً وبكل أمانة وصدق. وأتت أغلب مشاهده أسيرة الإطار المادي الخارجي . وعلى أية حال فقد شكّلت منظومة "نزهة الجليس" عملاً فنياً متميزاً بالنسبة إلى زمانها على الرغم مما فيها من هنات، وكانت إضافة متميزة بالنسبة للأدب الجغرافي العربي خاصة عندما تكون مرتبطة بمنطقة بقيت مدة طويلة تحت الظل وأسيرة النسيان . وفي زمن انحدر فيه الأدب العربي .

د. عبد الجليل منصور العريض

كلية الآداب – جامعة البحرين

مرفق (١)

نزهة الجليس في وصف الديار

(من الرجز)

١ - قالَ الفقيرُ المذنبُ الجاني الأقلْ   عبدُ الجليلِ ذُو الخطايا والزللْ

٢ - هو ابنُ يسٍ سليل الهادي   مستمنحاً مواهب الجواد

٣ - الحمدُ للهِ الكريمِ المنعمِ   مَنْ ذكرُهُ أُنسُ الحنيفِ المسلمِ

٤ - ثم الصلاةُ مع سلامٍ دائمِ   على النبيِّ المصطفى من هاشمِ

٥ - والآلِ والأصحاب والأتباعِ   ما لذت النزهة في الطباعِ

٦ - وبعده فخيرُ لذات الدُنا   طيبُ اجتماعٍ بالكرامِ الفطنا

٧ - لا سيّما في أرضِ متنزه رَضي   يُفصحُ كل فيه ما قد يقتضي

٨ - من كلِ معنى في الحديث مُبتكرْ   كأنهُ زهرُ الرياضِ في البكرْ

٩ - نجني ثمارَ الجدِّ في فنون   طوراً وطوراً ملحَ المجون

١٠ - فذاك للأريب أهنى مكتسبْ   لا يرتوي منه الظريفُ ذو الأدبْ

١١ - كذا أبو الوليد عبد الملك   قد صحَّ عنه، أن ذا عنه حُكي

١٢ - من قوله شبعتَ مما أشتهي   إلا أحاديثَ الرجال النبه

١٣ - وكان مما يسَّرَ الربُّ الحفي   أنا خرجنا نقصدُ النزهة في

١٤ - صُبحِ الخميسِ النصفِ من شهرِ رجبْ		فِي خامسِ الحوتِ وذا فصلٌ يُحبْ
١٥ - من سنةٍ في ضَبْطِها أرّخْنا		"عَنّيَ للنزهةِ قُلْ خرجنا"
١٦ - في رفقةٍ غُرِّ الوجوهِ كُمّلِ		ما منهمُ إلا فصيحُ المقولِ
١٧ - قومٌ كرامٌ من كرامٍ تُنْتَمى		ممّنْ زكا خالاً وطابَ عمّاً
١٨ - قد ملكوا محاسنَ الأخلاقِ		من كلِّ قرْمٍ للعُلا سبّاقِ
١٩ - باعوا الخلافَ واشتروا وفاقاً		فالكل في حُسنِ الطباعِ فاقا
٢٠ - قد أوثقوا العهدَ على صدقِ الإخا		في حالةِ الشدّةِ أو حالِ الرخا
٢١ - من طبعهم إيثارُ ما تشاءُ		لهم بذلكَ اليدُ البيضاءُ
٢٢ - أنعمْ بهم من معشرٍ أكارمِ		قد ارتقوا إلى ذوي المكارمِ
٢٣ - جزاهُمُ اللهُ بخيرِ ما جَزَى		لصالحِ الإخوانِ في يومِ الجزا
٢٤ - وقد أزاحَ اللهُ عنا الثُقلا		فلا ترى إلا ظرافاً نُبلا
٢٥ - غلمانُنا كل خفيفِ الروحِ لا		ينفكُّ في بشرٍ وطبعٍ سهلا
٢٦ - لا يعبسونَ في صعوباتِ الخدمْ		يخشونَ أن يُقالَ فيهمْ ما يُذمْ
٢٧ - من كلِّ سبّاقٍ إلى المرادِ بهْ		كلّ أبى سبْقاً يُرى لصاحبهْ
٢٨ - سلاحُنا الأسيافُ والبنادقُ		وبالرمايةِ الجميعُ حاذقُ
٢٩ - وقد صَحِبنا معنا أسفارا		نقطفُ من أسطارِها أزهارا
٣٠ - من نكتةٍ نادرةٍ لطيفهْ		تختارُ للسمعِ بها تشنيفهْ
٣١ - أو بيتِ شعرٍ ذي معانٍ حاليهْ		أو قصةٍ عن القرونِ الخاليهْ
٣٢ - كذلكَ الفقهُ لدينا منهُ		ما لم يكنْ لنا غناءٌ عنهُ
٣٣ - كذا من الحديثِ سفرٌ كافي		وهو لداءِ الجهلِ خيرُ شافي

٣٤ - قد امتطينا قاربين خُفّا … بحسن تيسير الإله لطفا

٣٥ - قد أُحكما صناعةً وعدّة … أسرعُ من طرف تُطيل مدّه

٣٦ - أرفّهُ مركوب وفي خير مقرّ … تضمّنا ضمّ الصناديق البدرْ

٣٧ - لا كالجوار المنشآت في العظمْ … إذا رأيتَها حسبتَها علَمْ

٣٨ - بل إنما هما لطيفا جُرُمِ … ليجريا في البحر إذا لم يَطُمِ

٣٩ - لمّا ركبنا كانت الريحُ لها … تحرُّكٌ مطابقٌ للمُشتهى

٤٠ - سرنا على اسم الله في مجراهما … كذلكَ باسمه لدى مرساهما

٤١ - حتى قدمنا باعتجال "ستره" … واللهُ مُسْبِلٌ علينا ستره

٤٢ - ترى بها النخيل باسقات … من كل نوع لذ للجنات

٤٣ - فيها ينابيعُ المياه قد جرتْ … في برّها وبحرها تفجّرتْ

٤٤ - فمذ نزلناها ضُحى النهار … في دار بخاخ بلا استقرار

٤٥ - أقبل دعبل بما نحتاجُ لهُ … من حطب النخل وذاك ناقلهْ

٤٦ - من ذلكَ الأكار أكار السري … مبارك الاسم كريمُ العنصر

٤٧ - نجل الهمام الباسل المغوار … إذا علتْ غياهبُ الغبار

٤٨ - وخفّ قلبُ البطل الكرّار … تلقاهُ عندَ الروع مثل الضاري

٤٩ - يخضبُ متنَ الصارم البتّار … من هامة القرم الجري الواري

٥٠ - عنيت عبدَ الله نجل أحمد … سامي الذرى ربّ العُلا والسؤدد

٥١ - الماجدَ الندبَ الجوادَ العبقري … كهفَ العفاة غيثَ محل مُغبر

٥٢ - أمّ الوفودُ نحوه أفواجا … لرفده قد قطعوا الفجاجا

٥٣ - يعرفُ كل باغض حسود … أنه الوفيّ بالعهود

٥٤ - عاشَ بهِ الجارُ على الوقارِ … منعةً وعزةِ الجوارِ

٥٥ - من مَعشرٍ شُمٍ تعاقدوا على … حُسنِ السجايا وأكتسابِ للعُلا

٥٦ - آلِ خليفةَ عظامِ المفخرِ … من كلِ قرمٍ ماجدٍ غضنفرِ

٥٧ - ومُذْ غنمنا نزهةَ "الجزيره" … سرنا إلى "جو" بحسنِ سيره

٥٨ - المنزلُ الذي عفتْ رسومُهُ … مُذ أفلتْ من أفقهِ نجومُهُ

٥٩ - من بعدِ ما كانَ محطَ الرَحْلِ … يلقى بها الطارقُ خيرَ أهلِ

٦٠ - ومعقلَ الوُفودِ والضيوفِ … ومأمنَ الطريدِ والمخوفِ

٦١ - يزينُهُ غُرٌّ بهِ سُكّانُ … هُمُ الحُماةُ الصيدُ والشجعانُ

٦٢ - من كلِ فاضلٍ نقيِ العرضِ … أشمَّ غطريفٍ جوادٍ مُرضي

٦٣ - دارٌ لربات الحجالِ الخُرَّدِ … من كلِ هيفاءَ بقدٍ أميدِ

٦٤ - ذاتِ اللمى المعسولِ والثغرِ الشنبْ … وعقربِ الصدغِ لمضناها تدبّْ

٦٥ - ترسلُ من شعورها أفاعيا … تنهشُ قلبَ الصبِّ وهي ما هيا

٦٦ - فأصبحتْ أطلالُها تُسائلُ … أينَ الدُمى وهاتكَ الخلاخلُ؟

٦٧ - قضى عليها الدهرُ بالخرابِ … حتى غدتْ مساكنَ الضبابِ

٦٨ - وذاكَ أمرُ اللهِ حيثُ أحكمَهُ … بدا بأهلِها اختلافُ الكلمَهْ

٦٩ - واحتوشتْ أرجاءَ أهليها العدى … جندُ سعودٍ والذي به اعتدى

٧٠ - ظلماً فجاءها بكلِ مصلتِ … وقد أمدهم إمامُ "مسكت"

٧١ - وبعضُ أهليها نحى الخيانهْ … بغياً بلا جُرمٍ ولا امتهانهْ

٧٢ - بل قادهم لذلك الرجيمُ … ومن يخونُ غادرٌ ذميمُ

٧٣ - فاختارت الأشياخُ منها الرحله … من قبلِ أن تلحقهم مذلهْ

٧٤ - فعادت الدارُ طلولاً خاويه ... فلا يجيبُ الربعُ منها داعيه

٧٥ - سوى فريقٍ حلَّ منها ناحيه ... وكلهم في الصَّيد هادٍ داهيه

٧٦ - مُميّزُ الأجناسِ والأنواعِ ... في سردِ أسماها طويلُ الباعِ

٧٧ - لا يجهلُ الحيتانَ فرداً فردا ... يعرفُ بدءَ صيدها والحدّا

٧٨ - من حاذقٍ في صيدها منعوتِ ... شباكُهُ آفةُ كلِّ حوتِ

٧٩ - يقول هذا النوع فصلُهُ دخلْ ... يُرى غداً وسطَ الشباكِ قد حَصَلْ

٨٠ - وفصلُ ذا قد انتهى من أمسِ ... فلم يردْ بعد غدٍ في حَدْسي

٨١ - فبادرونا منه بالغضِّ الطري ... من خيرِ موجودٍ بزعمِ المُخبرِ

٨٢ - وكلِّ "جرجور" طويلِ السَّيفِ ... فأكثروا منه بغيرِ حَيفِ

٨٣ - وقد وردنا منهلاً مُستصفى ... فيها مريساً سُكّرياً أصفى

٨٤ - بتنا ثلاثاً فيه بالتوالي ... لعبرةٍ بهاتك الأطلالِ

٨٥ - ثم ارتحلنا الصبحَ للجنوبِ ... فزادَ فينا الريحَ بالهبوبِ

٨٦ - حتى تجاوزنا ضحىً "حدَّ الجمَلْ" ... هناك أرسينا بمنزلٍ يُمَلْ

٨٧ - في قفرةٍ ليسَ بها أنيسُ ... ولا يعافيرُ وليس عيسُ

٨٨ - ثم قطعنا منتهى "البحرينِ" ... صبحاً وجَرْيُ الريحِ بالهوينِ

٨٩ - حتى نزلنا "الراسَ للعيّاش" ... من غيرِ ازعاجٍ ولا انكماشِ

٩٠ - بتنا بأرضٍ خيرُ ما فيها الحطبْ ... لكنْ من الشمسِ أتى بعضُ التعبْ

٩١ - ما شانُها إلا مَخاضٌ طالا ... لبعده قد أتعبَ الرجالا

٩٢ - وأصبحَ الضبابُ كالنساجِ ... بُرداً يمدُّهُ على الفجاجِ

٩٣ - وقد تركنا ذلكَ المكانا ... وغيره نحتَه قاربانا

٩٤ – وذلك اليومَ الهوا عنا ركَدْ	بقدرِ ما ينسجُ في البحرِ زرَدْ
٩٥ – حتى تجاوزنا إلى "دوباس"	في ربوة بتنا شمالَ الراس
٩٦ – يا حُسنَهُ من بندرٍ مقاربْ	حَبْلَ الخُباء عند حبل القاربْ
٩٧ – أرضٌ بها تنشرحُ الصُدورُ	عنها تقولُ الصحبُ لا نسيرُ
٩٨ – في رملة كأنها "الدهناءُ"	طَيّبةٌ لذ بها الثواءُ
٩٩ – رياضُها تحفها كثبانُ	ينبتُ فيها الشيحُ والحوذانُ
١٠٠ – كذلك الطرفاءُ والثمامُ	والمرخ والأرطاةُ والرمرامُ
١٠١ – فيها كثيبٌ زانَ بارتفاعِ	تنظرُ منه غالبَ البقاعِ
١٠٢ – يا طيبَ ليلتَين قد بتناها	في هاتك الربوة ما أهناها
١٠٣ – فيها أتانا ابنُ هلال جمعهْ	إذ مازجَ اللؤمُ عياناً طبعَهْ
١٠٤ – لا يحسنُ القول ولا استماعَهْ	يحسبُنا نغصبُهُ متاعَهْ
١٠٥ – نقول بعنا بعضَ ذي الحيتانِ	بما ترى من أحسنِ الأثمانِ
١٠٦ – بحكمكَ الجائر نحن نرضى	فاحكمْ وخذْ وأدّ هذا البعضا
١٠٧ – وهو يصيحُ إنكم نهّابهْ	ولم يزل بهذه المثابهْ
١٠٨ – قلتُ دَعوهُ ودعُوا جرابَهْ	هذا من القبحِ حشا إهابَهْ
١٠٩ – لا خيرَ في غالب جلّابي السمكْ	طباعُهم للؤمِ تغني عن شَرَكْ
١١٠ – ثم ارتحلنا الصبحَ للشمالِ	نطوي قرى الساحلِ بالتوالي
١١١ – نقولُ ذي "الزلاق" قلعة "صَدَدْ"	ننظرُها من سبَدٍ ومن لبَدْ
١١٢ – لم يكنِ الساحلُ ذا ابتعادِ	ملّاحُنا يجيبُ نجوى الحادي
١١٣ – وذلك النهارُ قلنا في "العقا	ريه" المقيلُ فيها لم يُطَقْ

١١٤ - فيها البعوضُ صائلٌ والساحلُ   في النتنِ ذاكَ مستراحٌ سائلُ

١١٥ - تظلنا عُرُشٌ بهـا وخيمـهْ   يا قبحَهـا منازلاً ذميمـهْ

١١٦ - مبيتنا كان برمـلٍ سلسِ   بخيرِ موضـعٍ لطيفٍ سلسِ

١١٧ - أنزهُ سبسبٍ من الصحـاري   في قربِ جدولٍ زلالٍ جاري

١١٨ - فيها بشيرٌ جاءَ بالمطعومِ   كلِ لذيـذٍ ساغَ في الحلقومِ

١١٩ - "أمُّ نعسانَ" نحوها عبرنـا   ومُذ رأينـا وضعَها اعتبرنا

١٢٠ - شاطئها غرباً به كهفُ جبلْ   بطوله يقطرُ ماءٌ للنهلْ

١٢١ - يجري إلى البحرِ وينبتُ القصبْ   بينهما وذاكَ من أوفى العجبْ

١٢٢- فالموجُ يرقى لا يميت الوجمَهْ   وكلُّ صُنعِ اللهِ جلَّ أحكمَهْ

١٢٣ - في الكهفِ حوضٌ فيه صُبَّ البارِدا   منه ارتـواءُ من يمرُّ وارِدا

١٢٤ - وإن في أثنائها أو في الجبلْ   دُكدكٌ بعضهُ وباقيه قُللْ

١٢٥ - وفيه كمْ مغارة مُضلـهْ   ليستْ على الداخلِ بالمظلهْ

١٢٦ - وبعضُها يشبهُ نحتَ العملِ   وموضعُ البابِ مع القفلِ جلي

١٢٧ - حوضٌ مربّعٌ أتى في ذروتهْ   مجرى السيولِ قاصدٌ لوجهتهْ

١٢٨ - وبعضُ عُشبٍ مزهرٍ في سفحه   تستنشقُ الطيبَ بشمّ نفحه

١٢٩ - فيها مراعٍ شملتْ أكنافها   تغني ولو لم تبلغنْ أطرافها

١٣٠ - وقد أتانا العصرَ "ابراهيمُ"   فيها هو ابنُ أحمدَ النديمُ

١٣١ - يغنيكَ عن سميه ونجله   الموصليين بحسنِ فضله

١٣٢ - فنُّ الموسيقى غدا استاذهُ   مع حفظِ ما نطلبهُ انشادهُ

١٣٣ - من آل "برمك" نشا في "البصره"   له بها قبيلة وأسره

١٣٤ - وقد رأى الصحبُ بها كم حَيَّهْ ميتة فيها وكم من حَيَّهْ
١٣٥ - لمّا تركناها أتى المسيرُ بين جزائرٍ بها الطيورُ
١٣٦ - ما بينَ واقعٍ بها أو طائرِ قاطبة نهاتك الجزائرِ
١٣٧ - ترتاعُ من شدّة جَري الماءِ لضيقِ مجرى هاتك الأرجاءِ
١٣٨ - حتى نزلنا في فناء "القلعةْ" والنخلُ حولها أبانَ طلْعَهْ
١٣٩ - فجاءنا ريحانُ فيها عازماً وابنُ رضيٍ عازماً منادما
١٤٠ - مرَّ بنا في عامرِ النخيلِ راقتْ ولو بظلّها الظليلِ
١٤١ - أشجارُها تنوّعتْ أزهارُهَا غنّى على أفنانها هَزَارُهَا
١٤٢ - كأنما الأُترجُ في الأوراقِ شُبْ في خيمةٍ خضرا قناديلُ ذهبْ
١٤٣ - وزهرهُ في قمعهِ كأنملهْ من فضةٍ زمردا مُكللهْ
١٤٤ - والوردُ فيها قد زهَا احمرارهُ كم سكرتْ بظلّهِ أطيارهُ
١٤٥ - وخوخها معطّرُ الأفياءِ وزهرهُ كالقبةِ الحمراءِ
١٤٦ - والماءُ جارٍ قد صفتْ جداولُهْ واستعذبتْ لواردٍ مناهلُهْ
١٤٧ - منظرُ هذي القلعةِ العظيمهْ تعرفُ منها أنها قديمهْ
١٤٨ - أركانُها محكمةُ البناءِ بطرفها تشيرُ للسماءِ
١٤٩ - صخورُها منحوتةٌ مربعهْ عظيمةُ السُّمك بطولٍ وسعهْ
١٥٠ - فسيحةٌ بديعةُ التفصيلِ يقصرُ عنها الوصفُ بالتطويلِ
١٥١ - حاطَ بها سورانِ ثم الخندقُ يعجبُ راءٍ عرضُه والعُمُقُ
١٥٢ - قصورُها ناءتْ عن التقصيرِ وقد زهتْ بزخرفِ التعميرِ
١٥٣ - ترى بها عجائبَ المباني دلّتْ على علوِّ شأنِ الباني

١٥٤ - من شادها مرادُهُ التخليدُ إذْ ما على إحكامها مزيدُ
١٥٥ - وقد قضَى اللهُ بنفيِ الخُلدِ وطالبُ الخلافِ غيرُ مَهديِ
١٥٦ - فانكشفتْ لذاكَ خيبةُ الأملِ إذْ رجعتْ تلكَ المقاصيرُ طَلَل
١٥٧ - بها اعتبارٌ لذوي الأبصارِ دَلَّ على نفاذِ حكمِ الباريِ
١٥٨ - فيها أتانا ناصرُ ابنُ زينِ فنعمَ صاحبٌ وخيرُ خِدْنِ
١٥٩ - أفادنا بسائرِ الأسعارِ وما طرا من حادثِ الأخبارِ
١٦٠ - وبعدما ملنا إلى الرجوعِ للأهلِ قبلَ آخرِ الأسبوعِ
١٦١ - هَبَّ علينا عاصفُ الشمالِ فلم نجدْ وجهاً للارتحالِ
١٦٢ - ثم توجهنا إلى البلادِ بخيرِ حالٍ مقتضى المرادِ
١٦٣ - في ضحوةِ الخميسِ مُنْتَهى رَجَبْ جئنا إلى المكانِ إذ نلنا الأربْ
١٦٤ - به انتهتْ رحلتُنا الميمونهْ بطالعِ السعدِ أتتْ مقرونهْ
١٦٥ - سمَّيتُها بنزهةِ الجليسِ حيثُ بدتْ بديعةَ التأسيسِ
١٦٦ - وبعد ذا أستغفرُ اللهَ الذي لم نرَ غيرَ عفوهِ من منقذِ
١٦٧ - يا مالكَ الملكِ ويا رباهُ يا سامعَ العبدِ إذا دعاهُ
١٦٨ - يا واجبَ الوجودِ يا أللهُ يا موئلَ العاني ومُلتجاهُ
١٦٩ - يا راحماً ليس لنا سواهُ أدعوكَ يا غوثاهُ يا غوثاهُ
١٧٠ - أغثْ عُبيْداً خافَ ما جناهُ إذ لم يخالفْ لحظةً هواهُ
١٧١ - فارحمْ مُقراً بالذنوبِ تائباً باكٍ ذليلاً ذا افتقارٍ شائبا
١٧٢ - وامحُ إلهي صُحُفَ الخطايا فضلاً فأنتَ موجدُ العطايا
١٧٣ - وجُودُكَ الواسعُ لن يضيقا بنا فقلْ يا عبدُ كُنْ عتيقا

١٧٤ - من العذاب والحساب المتعب إذا جثا الخلقُ غداً للركب

١٧٥ - والطفْ بنا في كلِّ ما تقدَّرَ وعافنا من كلِّ أمرٍ يُحْذرُ

١٧٦ - واعفُ عن الآباء والجيرانِ وعُمَّ بالعفوِ ذوي الإيمانِ

١٧٧ - واغفرْ لأهلي وكذا أولادي كذاك أصحابي مع الأستاذَ

١٧٨ - وابعثْ إلهي نفحةً ذكيةً من عاطرِ الصلاة والتحيةْ

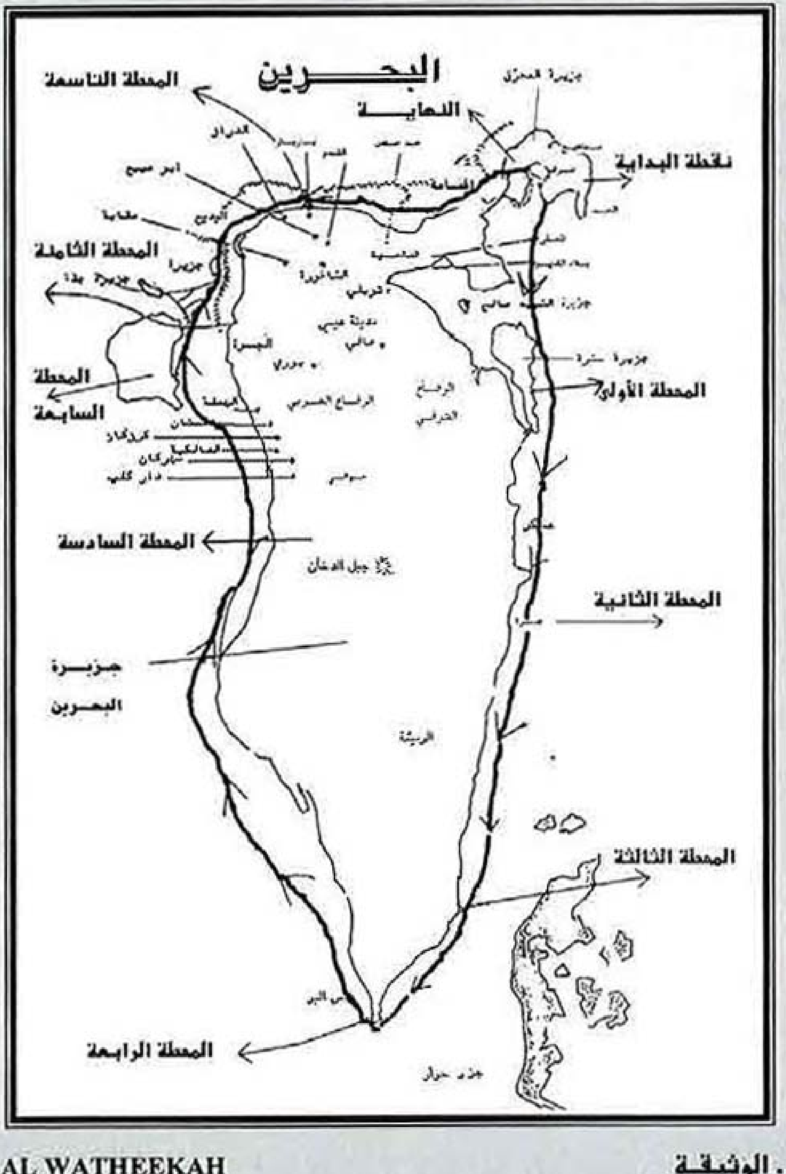
١٧٩ - على الحبيبِ الهاشميِّ الهادي لمهيَعِ النجاة والرشادِ

١٨٠ - سيدنا محمد وآلهِ وصحبه ومَنْ على منوالهِ

١٨١ - ما أضحكَ الروضَ بكاءُ المزنِ أو كشفَ البدرُ خمارَ الدُّجنِ

مرفق (٢)

خط سير الرحلة



الإحالات

١ - هو عبد الجليل بن السيد ياسين بن السيد إبراهيم، ينتهي نسبه إلى الأسرة الهاشمية . ولد في البصرة عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م . ودرس على علمائها ثم استوطن "الزبارة" في نواحي "قطر" وكانت تعيش عصراً من الرخاء الاقتصادي والازدهار السياسي والاجتماعي جعلها تستقطب الكثير من الشخصيات السياسية والأدبية . (تراجع مقدمة الديوان خاصة ص٢ وبعدها)، ووطّد علاقته بأمرائها من آل خليفة وقرّبوه ووثقوا به . وأخذ نجمه في الظهور . وانتقل معهم إلى "البحرين"، وسكن مدينة "المحرق" وذلك في عام ١٢٢٥هـ/١٨١٠م . وأوكلوا إليه أمر مراسلاتهم، وكان ممثلهم في المؤتمرات . له اتصالات واسعة برجالات عصره من سياسيين وأدباء وشعراء . غادر "البحرين" إلى "الكويت" وهو في السبعين وبقي هناك ما يقارب الأحد عشر عاماً حتى توفي بها عام ١٢٧١هـ/١٨٥٣م . تراجع ترجمته في مقدمة ديوانه ص٥ وبعدها وأعلام الزركلي ج٣ ص٢٧٦، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦ .

٢ - تراجع في ديوانه الموسوم بـ "روض الخلّ والخليل ديوان السيد عبد الجليل"، ص١٩٧ وبعدها، مرفق (١) . وقيّم الديوان كاتب مقدمته الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة فقال : "إن ديوان الطباطبائي هو بحق وثيقة تاريخية للفترة التي عاشها صاحبه من القرن الفائت (المقصود به القرن التاسع عشر الميلادي) في أرض الخليج العربي. وهو صورة صادقة للحياة التي كان ناس ذلك العهد يحيونها من مختلف النواحي الاجتماعية والأدبية والسياسية" ص ز . ومن أمثلة الجانب الوثائقي التاريخي قوله مؤرّخاً لعدد السفن التي غزا بها سلطان مسقط (السيد سلطان بن أحمد) الزبارة والبحرين في سبتمبر ١٢١٧هـ/١٨٠٢م : من الطويل :

لكَ اللهُ إنّي من فراقِ الحبائبِ ... لفي لاعجٍ بينَ الأضالعِ لاهبِ

هـوايَ زباريٌ ولستُ بكاتمٍ ... هـوايَ ولا مصغٍ للاحٍ وعائبِ

نأتْ دارُ من أهوى وعزّ قرارُها ... ومن دونِها قد حَال قرعُ الكتائبِ

وسَدّ طريقَ القُربِ منها بخمسةٍ ... وخمسينَ جلاً من عظامِ المراكبِ

(ص٩، والديوان بتحقيق ومراجعة يس الشريف، البحرين ١٩٦٤) .

٣ - يراجع الشرتوني سعيد الخوري، أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، مادة "نزه" .

٤ - يراجع السابق مادة "رحلة" .

٥ - يراجع "الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد"، نادية محمود عبد الله، ص٩٧، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٣، العدد ٤، ١٩٨٣ .

٦ - يراجع ص٣٧ من ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي، نشر المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٥ .

٧ - يراجع "السيمولوجيا وأدب الرحلات" لطيف زيتوني، مجلة عالم الفكر ص٢٥٨، المجلد ٢٤ العدد ٣، ١٩٩٦ .

٨ - سعيد يقطين "خطاب الرحلة العربي"، مجلة علامات، العدد ٩، سبتمبر ١٩٩٣، ص١٧١ .

٩ - إسماعيل المدني وهاشم السيد، بيئة البحرين البحرية ص٢٣ و ٢٤، نشر المؤلفين، البحرين ٢٠٠٠، سلسلة كتب حول الحياة الفطرية – ٧ .

١٠ - السابق ص٥٩ .

١١ - السابق ص٦٢ جدول ٣ .

١٢ - راجع الخريطة المرفقة في نهاية البحث (مرفق ٢) .

١٣ - عبد علي حبيل، جزيرة سترة بين الماضي والحاضر ص١، نشر المؤلف، البحرين، ط١ ٢٠٠٠ .

١٤ - السابق ص٦٧ و ١٠٠ .

١٥ - السابق ص٧١ .

١٦ - السابق ص٦٥، ومحمد بن خليفة النبهاني، التحفة النبهانية ص٢١ و ٤٩ و ٥٠، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١ ١٩٨٦ .

١٧ - يراجع جواد علي : تاريخ العرب قبل السلام ٢٩٦/٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٠ . وأيضاً يراجع عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك الحمر : البحرين عبر التاريخ، ج١ ص١٦، نشر وزارة الإعلام، البحرين ط٣-١٩٨٢ .

١٨ - النبهاني/ التحفة النبهانية ص٥١، وأعلام الزركلي ١٢٥/١ .

١٩ - لويس معلوف : المنجد في اللغة والأدب والعلوم مادة "قرش"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٨٦ . ولكون البحرين مجموعة من الجزر تتوفر فيها أصناف عديدة من السمك وقامت الباحثة وجيهة صادق البحارنة بإحصاء ١٣٠ صنفاً من أسماك البحرين في كتابها (Fish in Bahrain)، نشر وزارة التجارة والزراعة : ومن أشهر أنواعها التي ذكرتها : الصافي، والهامور، والكنعد، والشعري ... الخ . وأشارت في كتابها الآخر "أسماك البحرين الخطرة"، ص١١ وما بعدها . نشر وزارة التجارة والزراعة إلى أنواع سمك القرش التي تعيش في بحار البحرين وذكرت مخاطرها وأهم خصائصها . وعن أسماك البحرين يراجع أيضاً حبيل "جزيرة سترة.." ص٦٣ .

٢٠ - اليعفور : الظبي الذي لونه كلون العَفَر وهو التراب، أو هو الظبي عامة، أو ولد البقرة الوحشية . لسان العرب مادة "عَفَرَ" .

٢١ - تعرِّف المعاجم والكتب المتخصصة في الحياة النباتية هذه الأعشاب وتذكر خصائصها : الطبية واستعمالاتها المختلفة، فالشيح : نبات سهلي من الفصيلة المركبة رائحته طيبة وقوية وهو كثير الأنواع مادة "شاح" لسان العرب والمعجم الوسيط. والحوذان : نبات عشبي من ذوات الفلقتين منه أنواع تزرع لزهرها، وأخرى تنبت في البراري مادة "حوذ" لسان العرب والمعجم الوسيط، وعن خصائصه الطبية يراجع : نباتات البحرين الطبية، جميل عبد الله، فوزية الصالح ص٨، نشر جامعة البحرين ٢٠٠٢ . والطرفاء : جنس من النبات، ومنه أشجار وجنبات من الفصيلة الطرفاوية ومنه الإثل، لسان العرب والمعجم الوسيط مادة "طرف" وعن خصائصه الطبية يراجع نباتات البحرين الطبية ص٥٤ و ١٥٤ . الثمام : عشب من الفصيلة النجيلية، فروعه مزدوجة، متجمعة، لسان العرب والمعجم الوسيط ماد "ثمم" وذكرت خصائصه الطبية في "نباتات البحرين الطبية" ص١٣٤ . والمرخ : شجر لين رقيق سريع الاشتعال، لسان العرب والمعجم الوسيط مادة "مرخ" وخصائصه الطبية في كتاب "نباتات البحرين" ص٦٤ . الأرطاة :

نبات شجيري من الفصيلة البطاطية ينبت في الرمل ذو ورق دقيق ورائحة طيبة، لسان العرب والمعجم الوسيط مادة "أرط" ويراجع عن خصائصه الطبية "نباتات البحرين الطبية" ص١٧٤.

الرمرام : حشيش ينبت في الربيع، وضرب من الشجر، طيب الرائحة، لسان العرب والمعجم الوسيط ماد "رمرم" وعن أنواعه وخصائصه الطبية يراجع "نباتات البحرين الطبية" ص٨٠ وبعدها .

٢٢ - المعجم الوسيط مادة "دهن"، والمنجد في اللغة والأعلام، قسم الأعلام ص٢٨٩ .

٢٣ - تراجع أخبار الأب في كتاب الإصفهاني، الأغاني ١٤٢/٥ وبعدها وأخبار الابن في صفحات عديدة وردت في ج٢٤ ص١٤٩ . طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ .

٢٤ - ذكر د. سعيد عبد الله في كتابه "طيور البحرين والخليج العربي" وهو من منشورات مركز البحرين للدراسات والبحوث ط١، ١٩٩٣، وفي ص١٨ ذكر أن منطقة الخليج والجزيرة العربية وبحكم موقعها الجغرافي المتميز فهي نقطة التقاء لمناطق هامة في العالم فإنها تشكل معبراً هاماً للكثير من الطيور في وقت هجرتها الخريفية والربيعية، وموقعاً جيداً تستقر فيه لقضاء الشتاء بعيداً عن الشمال ومناخه القارس . وضمن كتابه ذكر أنواعاً كثيرة من تلك الطيور، وذكر مواطنها الأولى ومواسم هجرتها إلى المنطقة وخصائصها، كما اعتنى بذكر الطيور المقيمة وميزات كل منها .

٢٥ - عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أبا حسين : البحرين عبر التاريخ ١٤٦/٢ .

٢٦ - تراجع مقدمة الكتاب المذكور في المتن، ص٣ وبعدها، وعن أسباب الرحلة وظروفها يراجع ص ١٤ وما بعدها . والكتاب نشر المطبعة الحيدرية – النجف، ١٩٧٦ .

٢٧ - إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص١٥٢، دار القلم – بيروت، ط٤، ١٩٧٢ .

٢٨ - لمزيد من الأمثلة على هذا اللون تراجع الأبيات ٥٥ و ١١٦ .

٢٩ - يراجع أيضاً الأبيات ٢٠ و ٣١ و ٥٢ و ٨٦ و ١١١ و ١٢٥ و ١٣٨ و ١٧٣ .

٣٠ - لمزيد من الشواهد على هذا الضرب تراجع الأبيات ٤٠ و ٦٨ و ٨٢ و ١٨٢ و ١٢٩ و ١٤٣ و ١٤٧ و ١٥٠ و ١٥٢ وغيرها .

٣١ - مثال آخر لهذا النمط في البيت ١٣٤ .

٣٢ - يراجع لهذا اللون البيت ١٧ .

٣٣ - حسن النعمي : رحلة السرد . سرد الرحلة ، مجلة "جذور التراث" العدد الثامن، مارس ٢٠٠٠ ص١٨٩ .

٣٤ - السابق ص١٨٨ .

٣٥ - سعيد يقطين : خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية. ذكر سابقاً ص١٦٤ .

٣٦ - السابق ص١٧٠ .

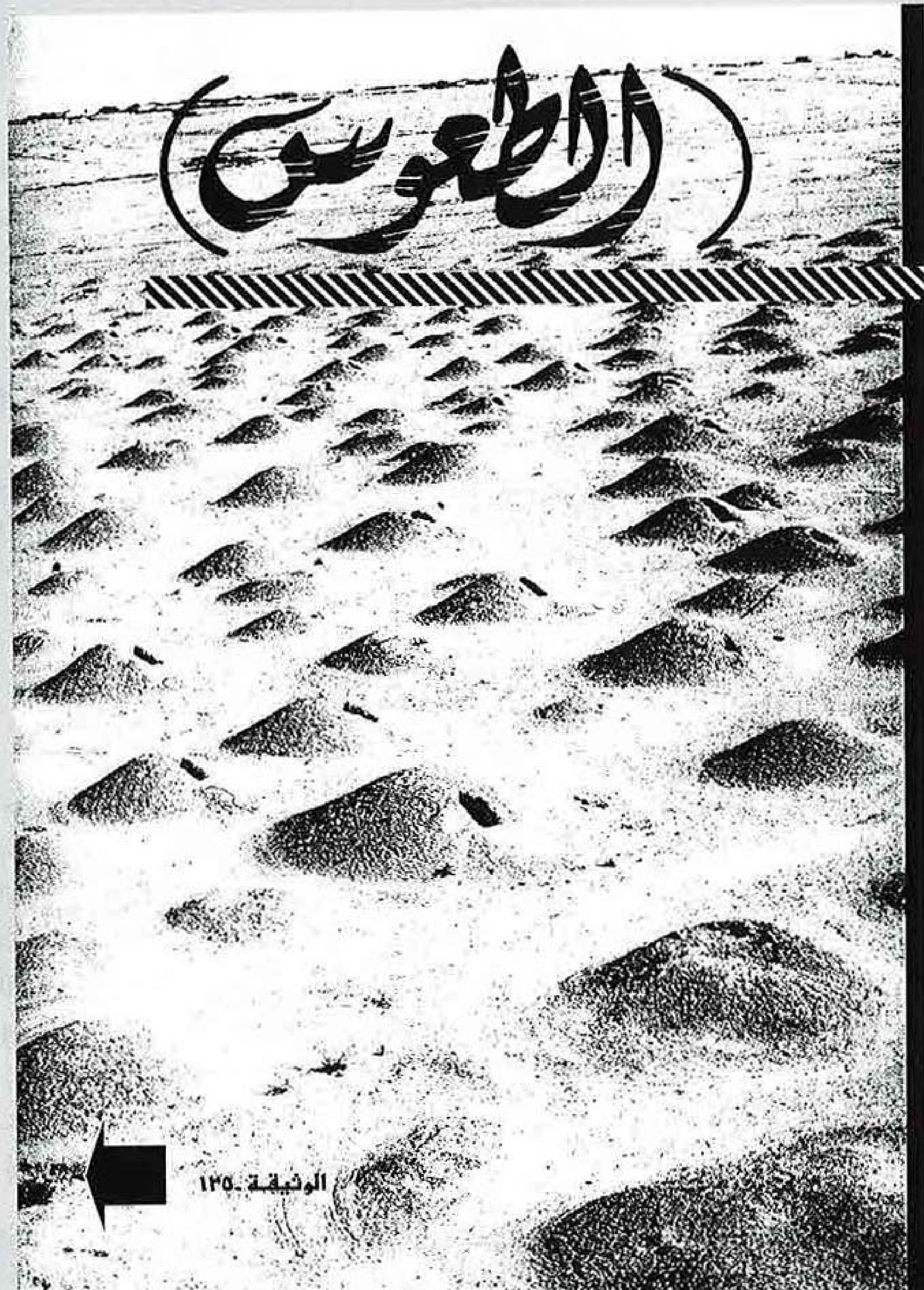
٣٧ - تراجع الأبيات من ٨٥- ٨٩ .

مدافن البحرين

بقلم : عبد الجبار محمود السامرائي

توجد في البحرين مجموعات كبيرة من المدافن، الفردية والمزدوجة، والجماعية، تسمى محلياً "الطعوس" تحتل مساحة شاسعة من الأرض سعتها حوالي عشرين ميلاً مربعاً، تتناثر أغلبها في وسط وشمال الجزيرة الأم "جزيرة المنامة"، مكونة أضخم مقبرة في العالم[1]، بعد مقبرة النجف في العراق. وتغطي هذه المساحة الواسعة قبور البحرين العملاقة المعروفة بـ "قبور عالي" وطريق الهملة، مارّة بالبساتين المحيطة بقرية دمستان وكرزكان والمالكية[2].

أما عدد المقابر القديمة في البحرين، فقد قدرها الباحثون بخمسين ألف تل، أي بحدود خمسين ألف قبر، أو مائة ألف قبر[3]. وقد وجد أن المواد والأدوات التي عثر عليها في هذه المقابر، تشبه المواد والأدوات التي عثر عليها في مواضع عديدة من جزيرة العرب.


الطعوس
الوثيقة ـ ١٣٥

ويظن بعض الباحثين أن أصحاب هذه المقابر كانوا يقيمون في الجهة المقابلة لجزيرة البحرين من جزيرة العرب، أي على ساحل الخليج، وكانوا قد اتخذوا الجزيرة مقبرة لهم ؛ فينقلون إليها موتاهم لدفنهم هناك . ومنهم من يرى أن تلك المقابر هي مقابر رؤساء الفينيقيين وأشرافهم الذين كانوا يقطنون البحرين، وأن عهد تلك المقابر يرجع إلى ما بين سنة ٣٠٠٠ق.م و ١٥٠٠ق.م[٤] .

ويرى أحد المعنيين بدراسة اللقى الأثرية التي وجدت في مدافن البحرين، أنها مقابر فينيقية، ويرى أن البحرين كانت موطن الفينيقيين من قديم[٥] .

ويستشهد بعض العلماء الذين يذهبون إلى أن مدافن البحرين هي مقابر فينيقية بالقول أن سكان البحرين هم فينيقيون، استناداً إلى ما ذكره "سترابون" من أن في جزيرتي تيلوس وأرابوس (Tylus & Arabus)، مقابر تشابه مقابر الفينيقيين، وأن سكان الجزيرة يرون أن أسماء جزائرهم ومدنهم هي أسماء فينيقية[٦] .

الشكل العام للمدافن

إن الشكل العام الظاهري لمدافن البحرين أشبه بالكثبان الرملية، أو التلال التي تكونت من قطع الصخور، وُضع بعضها فوق بعض، لتكون غرفة أو غرفتين، تكون إحداهما فوق الأخرى على الأغلب؛ لتُتخذ قبراً يوضع فيه الموتى . وعادة ما تكون سقوف الغرف من ألواح الصخور . وبعد إغلاق باب القبر يُهال التراب على الصخور، حتى تتخذ شكل تلال[٧] . وتختلف هذه التلال الرملية الاصطناعية عن بعضها البعض، سواء في الارتفاع أو في الحجم . فالتلال الاصطناعية تخفي بداخلها بناءً حجرياً متقناً متعدد الأقسام في ارتفاعها، تبعاً لحجم المدفن الحجري الداخلي . ومنها ما يرتفع عن سطح الأرض ما بين ٦ — ١٢ قدماً، وهذا الحجم يطغى على الغالبية العظمى من مقابر البحرين . بينما تتميز أخرى بارتفاع شاهق مما أوحى للمنقبين أنها ربما كانت قبوراً للملوك والرؤساء، حيث يبلغ ارتفاع بعضها إلى ما بين ٦٥ — ٨٠ قدماً[٨] .

أنواع المدافن

١ – المدفن الفرد :

هو المدفن، أو القبر المستخدم لميت واحد، ولمرة واحدة . ويعد هذا المدفن القاعدة الأساسية لدفن الميت، ونموذجاً لمعظم المدافن، ويشتمل على غرفة واحدة مستطيلة، متجهة من الشرق إلى الغرب، مدخلها على الأغلب في الجهة الغربية، وتغطي هذه الغرفة بقطعة حجرية ضخمة، مكونة من سقف المدفن المرتكز على جدارين مشيدين من خمسة صفوف أو أكثر غير مهندمة، خالية من الملاط . وقد وجد لبعضها عتبات معلومة من قطع حجرية منتظمة[٩] .

وفي نهاية المستطيل، أي الطرف المقابل للباب، تنفرج فسحة المستطيل صوب الشمال والجنوب، مكونة شكلاً مستطيلاً، امتداده من الشمال إلى الجنوب، بحيث يأخذ تخطيط القبر شكلاً عاماً، يشبه حرف T اللاتيني، وقد فرشت أرضية القبر بقطع الحجارة، وغطيت بطبقة رملية ناعمة قبل الشروع بدفن الميت[١٠] .

وقد تأكد أن الطبقة الرملية تلك، لها علاقة بطقوس الدفن، حيث لوحظ وجودها في غرف الدفن للطابق الثاني في المدافن المزدوجة . وكانت هذه القبور تغطّى بقطع حجرية كبيرة، تملأ فضاء السقف الذي يشكله البناء المستطيل الشكل الذي لا يزيد عرضه عن متر واحد . أما مدخل القبر المفرد، فيرتفع عن مستوى سطح الأرض بصف أو صفين من الحجارة، تشكل عتبة المدخل، وأحيط بناء القبر المفرد بجدار شُيِّد من تراكم حجر غير مهندم، لا يزيد ارتفاعه عن خمسين سنتيمتراً، يحيط القبر بشكل دائري، ثم يتلو ذلك، إحاطة البناء المستطيل الشكل، وجداره الدائري الخارجي بركام رملي ؛ يشكل المظهر الخارجي العام للقبر المفـــرد، ويجعله على شكل كثيب رملي أو تـــل رملي[١١] .

أما أسلوب الدفن في القبر المفرد، فيتم بوضع الميت على جانبه الأيمن وساقيه منثنيتان، بحيث تشكل ركبتيه زاوية حادة في اتجاه الصدر . أما الذراعان فمنحنيان، في وضع تظهر الكفان متجهان نحو الوجه .

لقد عثر في مقابر البحرين الفردية إلى جانب الجثث، على موجودات متنوعة منها : قدور فخارية، وجرار صغيرة مطلية بالدهان الأحمر، كما عثر على هياكل بشرية، وإلى جانبها هياكل وعظام لحيوانات، كالكلب والغزال والخروف . أما هيكل الكلب، فيوجد في بعض الأحيان مدفوناً عند قدمي الميت ؛ وذلك لحراسة جثة سيده في مماته، كما كان الحال في حياته . ومن بين الموجودات الأخرى التي عثر عليها في القبور الفردية : كميات كثيرة من بيض النعام التي كانت تستخدم كؤوساً للشراب ولتزيين المدافن كذلك . كما عثر على مجموعة كبيرة من رؤوس الحراب والخناجر المعدنية، تتراوح أطوالها بين ٥ — ١٥ بوصة، وقد وجد بعضها مغموراً في جدران المدفن ؛ لأمر يتعلق بمراسيم الدفن[١٢] .

٢ — المدفن المزدوج :

هو المدفن الذي يشير تخطيطه إلى دفن أكثر من ميت واحد فيه، ولكن المدافن المزدوجة قليلة العدد بالقياس إلى النوع الأول، ومنها بعض قبور "عالي" الكبيرة، وأخرى قريبة من قرى "الجنبية" وقرية "سار" . أما تخطيط هذا النوع من المدافن، فإنها تحافظ على شكل التخطيط السابق للمدفن المفرد، مع ملاحظة كون الجدار الحجري المحيط بالقبر، يميل في ارتفاعه نحو الداخل تدريجياً، مما يدعو للاعتقاد بأن المدفن أثناء بنائه كان محاطاً بجدار من الحجر الجيري الأبيض، يعلو إلى ارتفاع يقرب من ثلاثة أقدام . كما يصل ارتفاع بعضها الآخر إل علوّ ١٠ — ١٢ قدماً، وربما بلغ ارتفاع بعضها إلى قمة التلّة، مكوناً برجاً دائرياً من الحجر[١٣] .

ويتميز مدفن "عالي" بضخامة حجم قبوره التي يصل ارتفاعها إلى خمسة عشر متراً وقطرها إلى خمسة وأربعين متراً . لذلك ليس مستغربا أن تسمَى هذه المدافن بـ "المدافن الملكية" .

ولطالما أشار المختصون إلى المظهر الخارجي لهذه القبور التي كانت أسطوانية الشكل عند تشييدها على هيئة أبراج[١٤] .

ولقد شيد المدفن المزدوج من غرفتين، إحداهما فوق الأخرى، مع احتفاظ الغرفة السفلية بفتحات جانبية، قد تكون للتهوية أو الإضاءة، كذلك فُرشت الأرضيات الحجرية للغرفتين بطبقة رملية ناعمة .

أما غرفة الدفن فمستطيلة الشكل، تتجه من الشرق إلى الغرب تقريباً، ومداخلها في الجهة الجنوبية، كما استخدمت قطع حجرية كبيرة لتغطية سقف حجرات يغلف الأوجه الداخلية لغرف الدفن . ويميل الجدار الخارجي لحجرة الدفن نحو الداخل، ويظهر ميلانه أوضح عند حدود الغرفة العلوية، حيث يراد من وراء ذلك تقليص مسافة الفضاء الذي يفصل بين جداري الغرفة لتسهيل عملية التسقيف .

لقد تبين من حفريات قبور "عالي" الكبيرة، أن التل الترابي كان يحيط البناء الحجري حتى قبل الشروع بدفن الميت، أو ربما بعد دفن الميت الأول، لذلك عملوا ممرات حجرية عمودية تخترق قمة التل الترابي، وتوصل إلى مدخل حجرة الدفن في الناحية الجنوبية، أو أفقية تتألف من صفين من الحجارة، تمتد من سفح التل إلى مدخل حجرة الدفن التي تُغَطَّى بقطع حجرية كبيرة بعد الانتهاء من عملية الدفن .

وتجدر الإشارة إلى أنه لوحظت في بعض غرف هذه المدافن ثقوب جدارية مثبتة في بعضها أوتاد من الخشب، فسُرت من قِبل علماء الآثار على أن الغرض من وجود هذه الأوتاد ؛ إما لتعليق ملابس الميت، أو تعليق نوع من السلال التي كانت تستعمل لحفظ بعض الأطعمة ؛ إذ كان الاعتقاد السائد في تلك الأزمنة، أن الميت سوف يحتاج إلى هذه المواد لاستخدامها في حياته الثانية[١٥] .

٣ — المدافن الجماعية :

إن المدافن الجماعية في البحرين تعود إلى العهد السلوقي (القرن الثالث قبل الميلاد)، وهذا ما يؤكد اكتشاف مقابر سلوقية من نوع "المقبرة الجماعية" على جانبي شارع البديع، ومنها ما يقع غرب "معبد باربار"، وقد شيدت معظم المقابر السلوقية بحجارة مهندمة،

بعضها تحمل رسم الحروف الأبجدية اليونانية ؛ مما يرجح نسبتها إلى العصر السلوقي، ويلاحظ أن هــذه القبور لا تلتزم باتــجاه معين في مخططها الأرضي[١٦] .

أما مقابر الحجر، المنسوبة إلى منطقة "الحجر" التي تقع بمحاذاة شارع البديع، في القسم الشمالي من جزيرة المنامة، فقد كشفت تنقيبات دائرة الآثار في البحرين (١٩٧٠ - ١٩٧٤) عن أن كل تل ترابي في منطقة الحجر، يبطن مجموعة كبيرة من القبور، بعكس مدافن "عالي" التي يقتصر كل تل فيها على مدفن واحد . كما أن قبور "الحجر" إنما أعدت لتكون قبورا جماعية وليست فردية؛ لذلك، زودت مقابر "الحجر" بعتبات ومداخل ليسهل الدخول والخروج منها وإليها عند استعمالها ثانية . إن دور تأسيس مقابر الحجر، يعاصر تماماً عصر مدافن "عالي" من حيث تنوع الموجودات بها .

لقد حفرت قبور "الحجر" في الأرض الصخرية، على عمق يتراوح بين متر واحد ومترين، ثم شيد فوقها إطار من الحجارة الصغيرة والملاط ؛ لكي يكون مرتكزاً لحجارة الأغطية، وقد طُليت أغلب القبور من الداخل بملاط أشبه بالأسمنت، من حيث صلابته ولونه، ويحتمل أنه كان مزيجاً من الرمل والجير والرماد .

ولهذه القبور أغطية متكونة من حجرتين كبيرتين، يملأ الفراغ المتبقي بينها، والفراغ المتبقي نحو المدخل بالحجارة والملاط، وكان لبعض هذه القبور مداخل تتصل بعتبات أو سلم من ثلاث درجات، تسد بقطع حجرية، ثم تفتح عند الحاجة؛ لاستعمالها ثانية[١٧] .

وأغلب القبور المكتشفة في "الحجر"، تعود إلى العصر الكيشي (١٨٠٠ق.م - ١٢٠٠ ق.م)، لكن قبراً جماعياً مهماً، يعود إلى أواخر العهد البابلي القديم (١٨٣٠ق.م - ١٣٥٠ ق.م) وبداية العصر الكيشي، عثر فيه على أنواع من الكئوس النذرية التي كانت تستخدم في المعابد عند تقديم القرابين للآلهة . إن هذا القبر يلقي ضوءاً جديداً على تاريخ البحرين القديم، وهو : أن الكيشيين كانوا قد استوطنوا البحرين لفترة تاريخية طويلة ؛ بدلالة المكتشفات الآثارية التي تعود إلى العصر من بدايته إلى نهايته، فضلاً عن اكتشاف مستوطن سكني لهم، إلى جانب المقابر الكائنة في قلعة البحرين . ويحتمل أن جماعة من الكيشيين قد اتخذوا من البحرين موطناً لهم ؛ لأغراض تجارية، أو وكلاء يقتصر عملهم على تصدير واستيراد المواد التجارية من المنطقة إلى بلاد وادي الرافدين، وبالعكس .

وجميع القبور الكيشية كانت قبوراً جماعية، حيث وجد في بعضها هياكل عظمية بشرية، يصل عددها أحياناً إلى أكثر من أربعين هيكلاً ؛ تتخللها لقى أثرية متنوعة، مصنوعة من الفخار والحجارة والعظم والصدف والعاج والبرونز، وكذلك الأختام الأسطوانية المصنوعة جميعاً من الحجر الطباشيري Chalk، ومن الطينة المستحضرة Fritt .

ومن الجدير بالذكر أن النوع الأول في المجموعة قد استعمل على مرحلتين :

أ – **المرحلة الأولى** : كان طول القبر ٥,١٠ م، وهي مرحلة تأسيسه، نحو عام ٣٠٠٠ ق.م بدلالة العثور فيه على ختم مشابه لأختام فترة جمدة نصر (٣٢٠٠ق.م – ٣٠٠٠ق.م) .

ب – **المرحلة الثانية** : اقتطع من طول القبر، بإضافة جدار في الجبهة الشرقية، بحيث أصبح طوله أربعة أمتار. وقد بنيت لجدار القبر درجات للدخول والخروج . وتعود هذه المرحلة إلى العصر الكيشي بدلالة العثور على مجموعة كبيرة من فخار ذلك العصر، حيث وجدت آنية من الرخام ذات قواعد مستديرة، وعروتين متقابلتين ومتناظرتين، مزينة بدوائر في داخلها نقاط، يعتقد أن فكرة وجود هذه الدوائر مأخوذة من العصر الدلموني التي تشاهد غالباً على الأختام الدلمونية، فضلاً عن أواني مصنوعة من الحجر الصابوني "ستيتايت"، وربما يكون هذا الحجر مستورداً من مناطق مجاورة على شكل خامات، يتم تصنيعها في البحرين إلى الأشكال المطلوبة من أواني وأختام، وما شابه ذلك[١٨] .

أما النوع الثاني من المجموعة الكيشية، فهو امتداد للنوع الأول، ويوجد في مقبرة "الحجر" التي تقع بمحاذاة شارع البديع إلى الشمال من الحجر الأول بمساحة ٤٠٠م . يرجع تأسيس هذه القبور إلى فترة باربار (٢٣٠٠ق.م – ١٨٠٠ق.م)، وقد أعيد استعمالها أو أضيف إليها قبور أخرى في العصر الكيشي (١٨٠٠ق.م – ١٢٠٠ق.م) ثم العصر الآشوري الحديث (٩٠٠ق.م – ٦١٢ق.م) . إن جميع الشعوب التي سكنت البحرين خلال الألفي سنة قبل الميلاد، قد استعملت، أو أعادت استعمال جزء من هذه القبور الجماعية لدفن موتاها . كما أن معظم القبور التي اكتشفت في الحجر، تحتوي على موجودات آثارية، وخاصة الفخار المعروف في مدافن "عالي"، والذي يتشابه مع الفخار الأكدي Sarjonis ware . وهناك قبور أخرى، من الفترة المذكورة قد أخليت من محتوياتها عند استعمالها في العصر الكيشي والعصور التالية، فقبور فترة حضارة باربـــار (٢٥٠٠ق.م – ٢٠٠٠ق.م) هي قبور بدائية منحوتة في الصخر بطريقة غير معتنى بها، وهي على الأغلب قبور صغيرة

الحجم نسبياً، ربما أقيمت لغرض استخدامها لعملية دفن واحدة، وربما لوجود متسع من الأرض، أو لقلة كثافة السكان آنذاك، وإن هذه القبور غير ممسوحة بالملاط من الداخل، وليس لها مداخل أو عتبات، أن الحاجة لا تدعو إلى ذلك، كما هو الحال في العصور التالية .

أما القبور الكيشية والآشورية واليونانية، فتتميز بالإتقان بالحفر والتشييد، فهي كبيرة الحجم نسبياً، وذلك لأنها أعدت لاستقبال أكثر من عملية دفن واحدة خلال العصر الواحد، إما لضيق المساحة المخصصة لبناء القبور، أو لتفادي تكاليف حفر جديد في أرض صخرية، حتى أن بعضها قد شيد فوق قبور فترة باربار، بعد مزجها وتهيئتها لتكون قبراً جماعياً واحداً . وتجدر الإشارة إلى أن معظم قبور هذه العصور، ممسوحة بالملاط من الداخل، ومزودة بمداخل وعتبات، ولقد وجدت عدة قبور خالية تماماً من العظام البشرية واللقى الأثرية إلا أنها مليئة بالرمل الناعم، على الرغم من كونها مغطاة بالحجارة، وهذا يؤكد القول بأن القبور كانت تعد سلفاً بكامل أغطيتها، ويترك جزء مفتوح عند المدخل لإدخال الموتى، بسبب عدم إمكان إعداد قبر في أرض صخرية مباشرة بعد حدوث الوفاة . ويمكن أن يكون وجود الرمل راجعاً إلى تسربه من غطاء القبر خلال العصور الطويلة .

لقد عثر على قبر جماعي كبير في منطقة الحجر يشتمل على غرفة مربعة الشكل تقريباً، تتصل بممر طويل من جهة الغرب منتهياً بمدخل واسع، كما وجد مدخل آخر يصل هذه الغرفة بقبر آخر في الجهة الشمالية . ويشكل هذا القبر وحدة بنائية منفردة تكون بمثابة مدفن كبير ذي مرافق عديدة، يتصل بعضها ببعض عبر مداخل أو ممرات، وقد عثر في هذه الغرفة على مجموعة من الهياكل والجماجم تقدر بحوالي ثلاثين هيكلاً يحتمل أن أغلبها هياكل نسائية، لأن معظم اللقى الأثرية المدفونة معها أدوات للزينة كالأقراط والحجول النحاسية والقلائد المصنوعة من أحجار كريمة متنوعة . ومن أبرز هذه اللقى العثـور على ختم أسطواني، يرجع إلى العصر الأشوري الحديث (٩٠٠ق.م — ٦١٢ق.م) .
إن مقابر "الحجر" تختلف عن مقابر "عالي" في كون كل ركام مدافن "الحجر"، يحتوي على عدد كبير من القبور، عكس "عالي" حيث يحتوي كل ركام على قبر واحد . ومعنى هذا أن قبور "الحجر" عبارة عن قبور جماعية لعدة أشخاص، من فترات متتالية . ولهذا

فإننا لا نتوقع أن نجد آثاراً في مقابر "الحجر"، تعود إلى فترة استعمالها التي قاربت الألف سنة، ابتداءً من فترة قبـــور "عالي" حتى العصـــر السلوقي[١٩] .

محتويات المدافن

١ – **التوابيت الخشبية** : في التل الملكي بموقع "الشاخورة"، توجد ثلاث غرف دفن من مدافن تايلوس، عثر فيها على بقايا توابيت خشبية تضم هيكلاً بشرياً وجهازاً جنائزياً، وهذه التوابيت عبارة عن أشكال مستطيلة من خشب الساج ذي اللون البني الداكن المائل إلى اللون الأسود، ولقد صممت زوايا المستطيل بحروف زخرفية تسمح بتداخلها مع بعضها البعض، فقد صمم على شكل هرمي، يغطي فتحة المستطيل بالكامل، وقد تآكلت قاعدة التوابيت نتيجة الرطوبة وتقادم الزمن[٢٠] .

٢ – **الأختام الأسطوانية** : عثر في بعض المدافن على أختام اسطوانية عراقية الصنع، مما يدل على عمق الصلات التاريخية والتجارية والبحرية التي كانت قائمة بين حضارة دلمون وحضارة بلاد وادي الرافدين . لقد أضافت أعمال التنقيب في المواقع البحرينية القديمة مجموعة أخرى من الأختام الأسطوانية، وغالبيتها من النوع المنبسط الدائري الشكل[٢١] . وعليه أمكن تأرخة بعض القبور بحدود سنة ٢٣٠٠ق.م . وكذلك تم التأكد من تاريخ قبور أخرى ورجوعها إلى حدود فترة العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ق.م – ١٨٠٠ق.م) .

٣ – **الفخاريات** : لقد تجمعت لدى المنقبين الأثريين في مدافن البحرين فخاريات مهشمة، ولكن أمكن تركيب وإعادة رسم بعض أشكالها، وثبت أن صناعة الفخار وشكله وألوانه كان شائعاً في البحرين[٢٢] . وقد تأكد ذلك من الفخار الدلموني الأحمر اللون الذي عثر عليه في المدافن والمستوطنات في الجزيرة نفسها[٢٣] . وعليه أمكن تأرخة بعض القبور من خلال الفخاريـــات التي ترجـــع إلى فترة العهـــد البابـلي الحديث (٦٢٦ق.م – ٥٣٩ق.م) .

٤ – **الأواني** : اكتشفت في مدافن البحرين بعض اللقى الأثرية، وهي أوانٍ على شكل كؤوس مصنوعة من قشور بيض النعام التي عثر عليها بداخل مقبرة كبيرة في "هجر بن حميد" في العربية الجنوبية التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد[٢٤]، ولكن وجود قشور بيض النعام في مقابر المنطقتين، ربما يؤشر جانباً من الطقوس الدينية المتشابهة والمتوارثة منذ أقدم الأزمنة في تاريخ الجزيرة العربية . وقشور بيض النعام تؤكد تواجد هذا الحيوان في مناطق مختلفة من جزيرة العرب[٢٥] . وكانت تلك القشور محورة على شكل كئوس، وقد عثر عليها في المقبرة الملكية في "أور" جنوبي العراق، يرجع زمنها إلى عصر فجر السلالات (٣٠٠٠ق.م – ٢٤٠٠ق.م)، ويلاحظ أن بعض أواني المقبرة الملكية في "أور"، كانت مطعمة بشرائط من الأصداف البيضاء والملونة[٢٦] .

٥ – **لقى أخرى** : كما تجمعت لدى المنقبين في مدافن البحرين مجموعة من المواد الأثرية المتفرقة، كقطع العاج وبعض المصوغات الذهبية والمعدنية الأخرى، مثل الخاتم الذهبي والخناجر النحاسية والبرونزية[٢٧] . كما عثر في مدافن البحرين على عدد من الجرار، تشبه تلك المستعملة من قبل محبي التراث الشعبي "الفولكلور" في عصرنا الراهن، وقد صنعت تلك الجرار من الطين، وضعه الخزاف على قرص دولاب يديره برجليه، واستعمل يديه في إكساب الطين شكل الجرة التي يريدها . ويميل لون هذه الجرة إلى الحمرة . كما عثر على أدوات أخرى، وكل ما عثر عليه غير مكتوب ولا مؤرخ، لذلك لا نعرف من أمره اليوم ولا من أمر أصحابه شيئاً[٢٨] .

طقوس الدفن

لقد أعطى أهل دلمون اهتماماً كبيراً بالأموات، لذلك كان لابد من وجود فئة متخصصة في بناء القبور وإقامة التلال عليها، فئة ربما كانت من البحرين بالذات، أو إنها فئة جاءت إلها من الخارج، لتنقل معها عادات وتقاليد ومراسيم الدفن من البلدان التي قدمت منها . وليس لدينا ما يوضح ما إذا كان الميت يدفن بملابسه أم لا، غير أنه من خلال

موجودات القبور يتضح أن الميت كان يزين بمختلف أنواع الزينة . ففي القبر ١ ب "يوناني" في "الحجر ٢"، وجدت جمجمة لامرأة ثبتت عليها أزرار بدبابيس من البرونز .

ومن المؤكد أن هذه الأزرار هي مشابك قد استعملت في تصفيف شعر المرأة للزينة وفي معظم الحالات، كانوا يلبسون الميت خواتم وأساور من البرونز والعقود المنظومة من الخرز الملون، وأحياناً العقود المنظومة من الأصداف البحرية، ربما بسبب حالة الميت الاجتماعية . وإذا كان الميت رجلاً مهماً، فقد جرت العادة على دفن موجوداته معه، كسيفه وخنجره ورؤوس السهام البرونزية، فضلاً عن أختامه الخاصة التي توضع قرب العنق، ليستفيد منها في حياته الثانية حسب اعتقادهم .

وفي معظم الحالات، يزود الميت بأواني فخارية تحوي المأكولات والزيوت وما إليها، وأحيانا ما يزود الميت بزجاجات العطور، ولم تكشف الأواني الفخارية عن البخور لحرقه عند دفن الميت، كما هي العادة عند كثير من حالات وطقوس الدفن في القبور السلوقية[٢٩] .

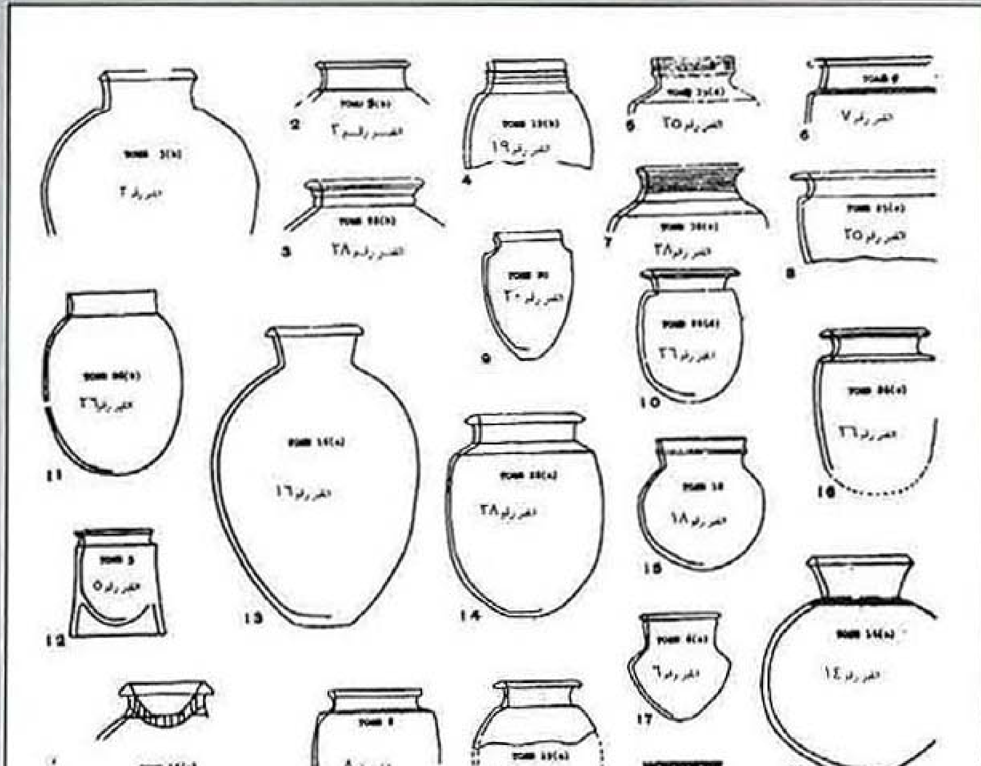
أما عن طريقة وضع جثمان الميت في القبر، فقد أعطت مقابر البحرين للباحثين هيكلين كاملين، لم يصبهما أي سوء أو تلف ؛ فقد تبين من فحصهما أن أهل الميت وضعوا جسمي الميتين على الجانب الأيمن، ووجهوا الوجهين نحو المشرق، وأمدوا رجلي الميتين . لذلك فإن وضع الميتين على هذه الصورة يبعث على الاحتمال بأن أهل البحرين كانوا يتبعون عادة كانت سائدة عند أهل بلاد وادي الرافدين أيضاً، في الألف الثالث قبل الميلاد[٣٠] .

أما أبواب مقابر البحرين، فقد وضعت في الجهة الغربية، مما يبعث على الظن أن لهذا الوضع صلة طقوسية بدين القوم[٣١] . كما عثر في البحرين على مقابر قديمة كثيرة، وجد بعد فتحها أنها قد خططت على نمط واحدة وتتجه مداخلها نحو الغرب، وذلك مما يبعث على الظن أن لهذا الاتجاه علاقة بشعائر دينية عند القوم أصحاب المقابر، وقد وجدت فيها عظام بشرية، منها جمجمتان بشريتان، وعظام حيوانات يبدو أنها دفنت وهي حية مع أصحابها وفق العقائد الدينية التي كانوا يدينون بها ؛ وعثر فيها على مصوغات من الذهب وعلى خرز وأحجار للزينة[٣٢] .

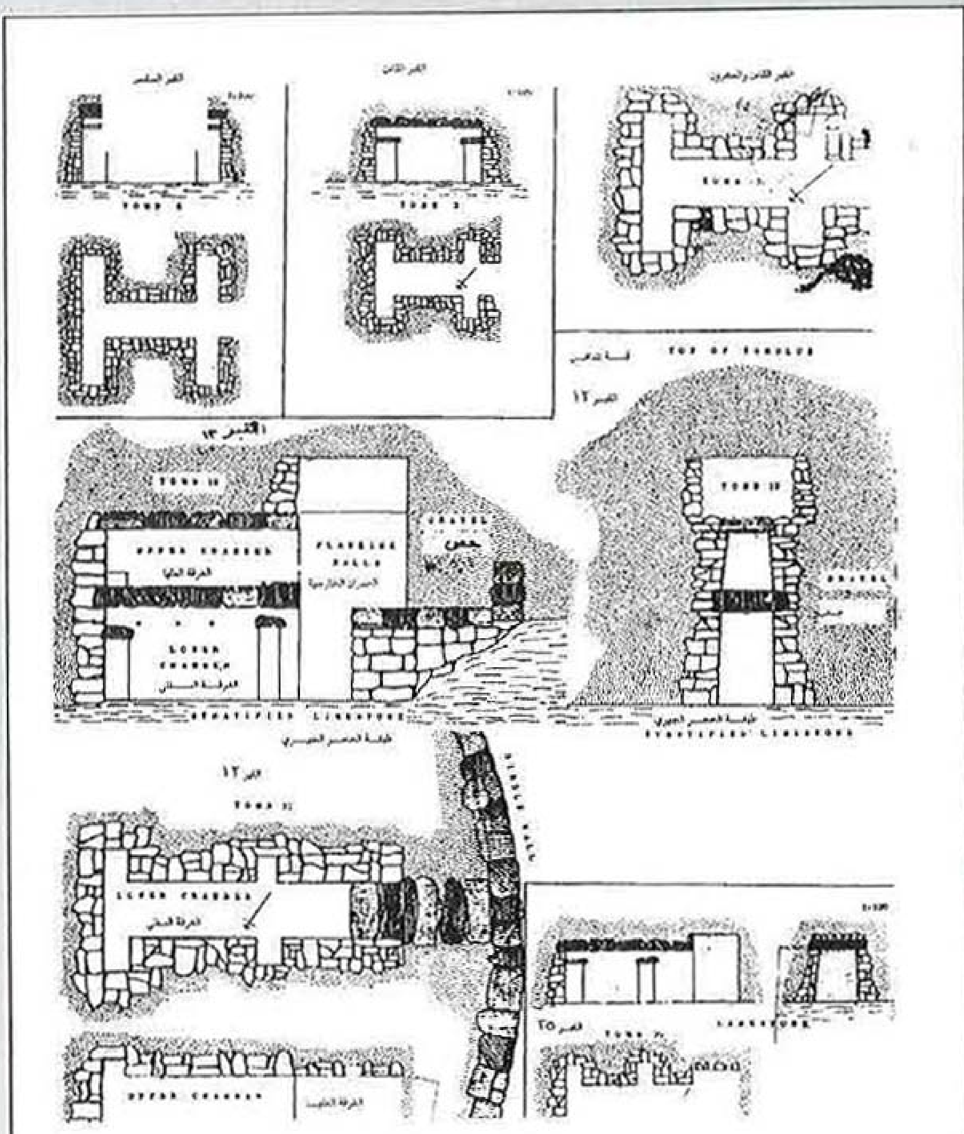
الخاتمة

وبعد ؛ تُعَد مجاميع مدافن البحرين من أكبر المدافن التي عرفتها الذاكرة الإنسانية، فقد بلغ عدد المكتشف منها ما يربو على المائة ألف، وذلك دون حساب ما اندثر منها بحكم التقدم العمراني ؛ بعضها واطئ، وبعضها الآخر يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً، متصلة أو مستقلة، إفرادية أو مزدوجة أو جماعية ؛ لعلها المعادل لأهرامات مصر ولزيقورات العـــراق، والمدافن البرجية في "تدمر"(٣٣) . وكان أبي العـــلاء المعـــري (٣٦٣ هـ - ٤٤٩م) يقصد مدافن دلمون حين قال :

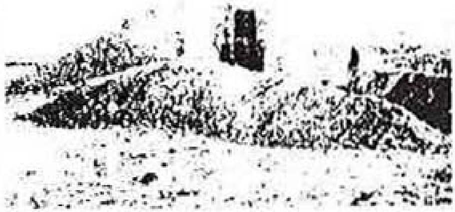
صاح ! هذي قبورنـــا تملأ الرحب ... فأين القبور من عهد عـاد ؟
خفف الـــوطء، ما أظن أديـــم الأرض إلا من هــــذه الأجســـــاد
وقبيح بنـــا وإن قـــدم العهـــد ... هـوان الآبـــاء والأجـــداد
سر، إن اسطعت، في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد
ودفـــين علـــى بقـــايـــا دفـــين ... في طويـــل الأزمـــان والآباد



فخار مدافن البحرين



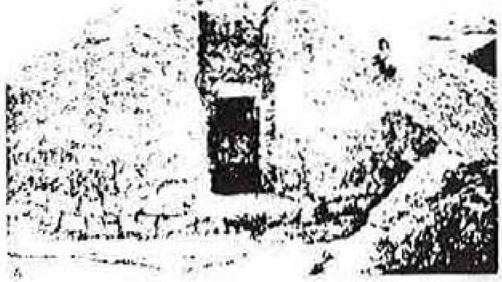
خـــطط قبـــور البحـــرين



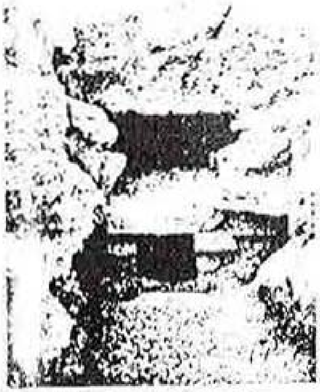
القبر ١٥



القبر ٦



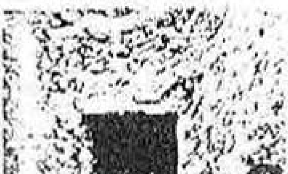
القبر ١٢



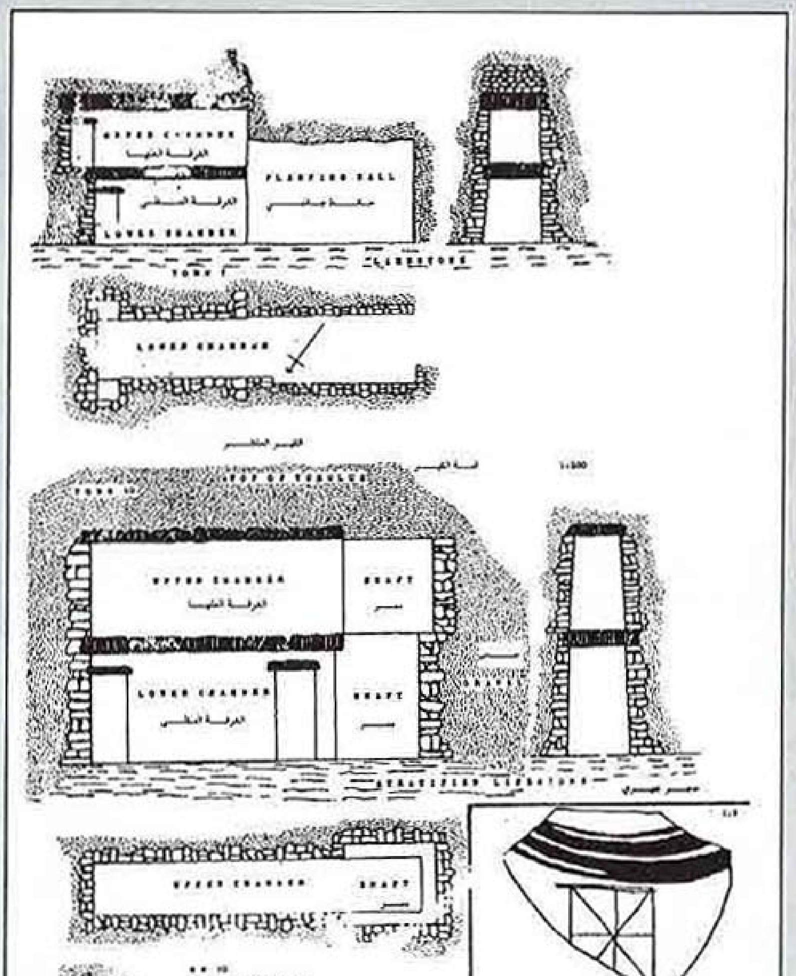
القبر ٢٣



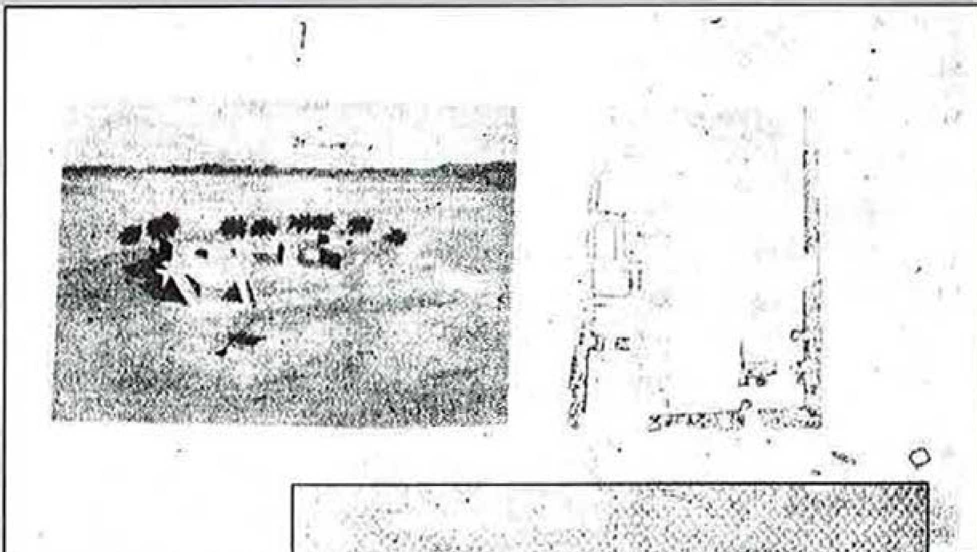




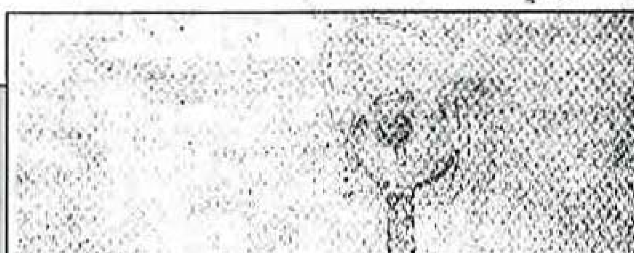
مدافن البحرين



خـــطط مدافـــن البحـــرين



معبد الطبقة
الأولى في باربار
(٢٨٠٠ ق.م)



معبد الطبقة
الثانية في باربار
(٢٥٠٠ ق.م)

الإحالات والهوامش

١ – عبد القادر التكريتي : (مدافن ومقابر البحرين)، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، العدد ١٩٧٩/١١م، ص٢٠٥ .

٢ – رضا الهاشمي : (جوانب من تاريخ الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ)، مجلة سومر، بغداد، جـ ١ و ٢، المجلد٣٦/١٩٨٠م، ص٢٢ .

٣ – د. جواد علي : (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٦م، ٥٣٧/١ .

٤ – Sanger, The Arabian Peninsula, P. 141, Enc. Vol. I, P. 585.

٥ – Enc. Vol. I, P. 585, Cornwall, in Geogr Journal, Cv 11, P. 36, 142, 1946 , Wilson, The Pers. Gulf. P. 29, Bent, The Bahrain Islands, In Roy, Geogr. Socl. 12, London, 1980.

٦ – Enc. I, P. 585, Wilson, P. 29, 30, Strabo, XVI, 111, 3< 4, Stuhiman Der Kampf S. 195.

٧ – د. جواد علي : مرجع سبق ذكره، ٥٣٦/١ .

٨ – رضا جواد الهاشمي : (المدخل لآثار الخليج العربي)، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٠م، ص١٢٩ .

٩ – عبد القادر التكريتي : مرجع سابق .

١٠ – رضا الهاشمي : (جوانب من تاريخ الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ)، مرجع سبق ذكره، ص٢٢ .

١١ – المرجع السابق .

١٢ – التكريتي : مرجع سبق ذكره، ص٢٠٧ و٢٠٨ .

١٣ – جمعية البحرين للآثار، بالتعاون مع قسم الآثار بدائرة التربية والتعليم لحكومة البحرين : (آثار البحرين، البحرين، ١٩٧١م، ص٣ .

١٤ – حضارة البحرين، من دلمون إلى تايلوس : مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢١، يوليو ١٩٩٩م، ص١١١ .

١٥ – التكريتي : مرجع سبق ذكره، ص٢٠٨ .

١٦ – رضا الهاشمي : (جوانب من تاريخ الخليج العربي)، مرجع سبق ذكره، ص٢٣ .

١٧ – الحجر : قرية على مقربة من طريق البيضة من الجهة الجنوبية .

١٨ – التكريتي : مرجع سبق ذكره، ص٢٠٩-٢١١ .

١٩ – د. سامي سعيد الأحمد : (تاريخ الخليج العربي)، مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٥م، ص٢٦٣ .

٢٠ – حضارة البحرين من دلمون إلى تايلوس : مرجع سبق ذكره .

٢١ – خالد السندي : (من ملامح التأثيرات الرومانية في مدافن تايلوس – التل الملكي بموقع الشاخورة)، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢٤، ص١٣ .

٢٢ – رضا الهاشمي : المدخل، ص١٣٢ و١٦٦ .

٢٣ – المرجع نفسه .

٢٤ – رضا الهاشمي : (جوانب من تاريخ الخليج العربي)، مرجع سبق ذكره، ص٢٤ .

٢٥ – Richard, Le Baron Bowen and F. P. Albright: Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958 (ADSA).

٢٦ – رضا الهاشمي : (البيئة الطبيعية في تاريخ الجزيرة العربية القديم)، مجلة كلية الآداب / جامعة بغداد، العدد ١٩٨٠/٢٨ .

٢٧ – رضا الهاشمي : (المدخل) . ص١٣٤ .

٢٨ – المرجع نفسه، ص١٣٢ .

٢٩ – د. جواد علي : مرجع سبق ذكره، ٥٣٧/١ .

٣٠ – التكريتي : مرجع سبق ذكره، ص٢١١ .

٣١ – د. جواد علي : مرجع سبق ذكره، ٥٣٦/١ .

٣٢ – المرجع نفسه، ٥٤٠/١ .

٣٣ – سعد عرابي : (معرض البحرين – دلمون وندوته الثلاثية . . .)، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢٥، يوليو ٢٠٠٠، ص٩٤ .